مَوْسُوعَةُ فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة الزخرف

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة الزخرف

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ ﴾

ابتدأت سورة الزخرف بِمْثِل ما ابتدأت به بعض سور القرآن الكريم بالحروف المقطعة، كسورة البقرة، وسورة آل عمران، وسورة العنكبوت وسورة الروم. كما تماثلت افتتاحيتها بسورة غافر، وسورة فُصِّلَت، وسورة الشورى، وكذلك بما بعدها، من سورة الدخان، وسورة الجاثية، وسورة الأحقاف. فبدأت بقوله تعالى ﴿ حمٓ ﴾ وهما حرفان من الحروف المقطعة، يعجز عن إدراك دلالتها الإنسان، ليقف مذهولاً أمام حرفين من الأحرف، لا يعرف عنها شيئاً، وليقف على أسلوب لم يسمع به من قبل، ولم يخطر بباله هذا البناء اللفظي العجيب، مما يدفعه شوقاً لمتابعة ما بعد تلك الحروف المقطعة. وأَمَّا عِلْمُ معناها ومرادها فعند الله تعالى، فهي سِرٌّ من أسرار الله تعالى في كتابه، نؤمن بها ونقرؤها كما جاءت. وهي من الذي لا يُفَسَّر. وتُلتمس فوائده. وقد تم ذكر بعض فوائد ذلك في سورة البقرة ولله الحمد والشكر.

ومن فوائد ذلك ما ذكره القرطبي رحمه الله تعالى: بأنها محك واختبار لمن يؤمن ويُقِرُّ بها كما جاءت، وأما الوقوف على فوائدها، فقال جمع كبير من العلماء: بل يجب أن نتكلم فيها؛ ونلتمس الفوائد التي تحتها[1] ومن فوائد الحروف المقطعة شد الانتباه، قال قطرب عن العرب: أنهم كانوا ينفرون عند سماع القرآن، فلما سمعوا ﴿ الٓمٓ ﴾ و ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ استنكروا هذا اللفظ، فلما أنصتوا له صلى الله عليه وسلم، أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته في

(١) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١٠٩/١)

أسماعهم وآذانهم، ويقيم الحجة عليهم.[١] مما يبين أن من أوجه البدء بها هو لشد الانتباه والأذهان لما بعدها من البيان، لما في ذلك من التشويق للمتابعة.

فلما نزلت هذه الحروف المقطعة بَقَوا متحيرين، فقد خاطبهم بما لا يفهمون، لِيُقبلوا على استماعه، لأن النفوس تتطلع إلى ما غاب عنها معناه، فإذا أقبلوا إليه خاطبهم بما يفهمون، فصار ذلك كالوسيلة إلى الإبلاغ، إلا أنه لا بد له من معنى يعلمه غيرهم، ويكون معلوماً عند المُخَاطب. فهذا الكلام يعم جميع الحروف[٢] وهذا يُفيد أهمية التشويق في التعليم، وأهمية لفت الانتباه، وشد ذهن المتعلم والمتلقي والمدعو والموعوظ لما يُراد تعليمه إياه ووعظه وإرشاده ودعوته إليه، أو إخباره به، وإشعاره بحاجته لما سيسمعه، حتى يعلم ما فيه من علم ومعرفة، أو نصيحة، أو غيرها مما يُراد نقله إليه.

بعد أن افتتح الله سبحانه وتعالى سورة الزخرف بحرفين من الحروف المقطعة بقوله عَزَّ وجل ﴿ حمٓ ﴾ لإيقاظ الأذهان وشد الانتباه إلى إعجاز القرآن العظيم، عطف بعد ذلك عليها بيان وضوح القرآن وفصاحته، فقال تعالى ﴿ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ أي: أن القرآن واضح جلي في ذاته، ومُوضح لما يحتاج إليه الإنسان من أمور الدين وشؤون الدنيا والآخرة. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: قَسَمٌ من الله تعالى، أقسم بهذا الكتاب الذي أنزله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم. فقال ﴿ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ لمن تدبره وفكر في عبره وعظاته، هداه وأرشده، ودله على أنه تنزيل من حكيم حميد، لا اختلاق من محمد صلى الله عليه وسلم، ولا افتراء من أحد[٣] وقال القرطبي رحمه الله تعالى: وقيل: ﴿ حمٓ ﴾ قسم. ﴿ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ قسم ثانٍ. ولله أن يقسم بما شاء[٤] بما يفيد تعظيم القرآن العظيم وإجلاله من الله العزيز الحكيم. وقد أشار تبارك وتعالى إلى القرآن العظيم بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ أي: إن القرآن الذي أنزله ربكم على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم هو كتاب الله سبحانه وتعالى، المتصف بكمال البيان في مضمونه، ونظمه، ولكل ما يحتاج إليه الإنسان في الدين والدنيا والآخرة.

وقوله تعالى ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ هو بيان وتأكيد وجزم من الله العزيز الحكيم ينفي به كل دعوى تنفي أنه ليس من عند الله تعالى، إذ أوضح سبحانه وتعالى أن دليله من نفسه، فهو كتاب مبين

---

(١) المرجع السابق (١٠٩/١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٧/١)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٤٥/٢٠)

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٤١/١٦)

﴿ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ فاقرءوا مضمونه لتدركوا من بيانه أنه ليس إلا من عند الله تعالى، لما فيه من إعجاز البيان، وقوة بلاغته، وجزالة ألفاظه، وتشريعه الحكيم، وما تضمنه من الأحكام، وما فيه من المواعظ والعبر، والأخبار عن أحوال الأمم السابقة، وما تناوله من الحلال والحرام، وما فصله من مكارم الأخلاق، وما فيه من تفصيل شأن هذا الإنسان، علاوة على بلاغة بيانه، وجزالة ألفظه، فهو كتاب إعجاز بما انفرد به، بل وأعجز أن يأتي أحد بمثله، ولو بسورة أو آية.

وقد جاء لفظ الكتاب مفرداً ﴿ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ ليفيد جنس الكتاب. بحيث إذا أفرد الكتاب فلا دلالة له إلا على القرآن العظيم. بما انفرد به من كمال إعجازه وكمال صوابه وحجته وبيانه وأحكامه، وأن ليس في أحكامه شيء من الظلم ولا الحيف ولا الشطط، بل كمال العدل الذي يُحق الحق ويُبطل الباطل، كما أن قصصه وأخباره وأمثاله ومواعظه خالية من الزيف والكذب، بما يثبت أنه صِدْقٌ وحقيقة من الله تعالى أنزله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد أفرد سبحانه وتعالى القرآن الكريم بأنه كتاب، ليفيد أنه مفرد من جنس الكتب، إلا أنه لا مثيل له بما انفرد به. فإفراده باسم ﴿ وَٱلۡكِتَٰبِ ﴾ يعني إذا قيل: الكتاب. فلا يعني إلا هو القرآن العظيم لا غيره، لعظمته وجلالته. وأفادت دلالة ﴿ وَٱلۡكِتَٰبِ ﴾ أنه مكتوب، فهو مكتوب في اللوح المحفوظ، ومكتوب في المصاحف، وكذلك دل ﴿ وَٱلۡكِتَٰبِ ﴾ على أنه المنفرد من بين جنسه بهذه المواصفات العظيمة.

ثم بعد القسم أورد تبارك وتعالى المقسم عليه ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ فأوضح وبين تبارك وتعالى ما اتصف به القرآن الكريم، وما يجب على العباد من فهمه وتَعَقُّل معانيه، فيقول عَزَّ وجل ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ ﴾ فإنا بيناه، وسميناه، وصيرناه ﴿ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ فصفته وتعريفه بأنه قرآن بلسان عربي فصيح، بما يؤكد به انتفاء موانع التلقي والفهم، فقد انتفى بذلك كل مانع يمنع عن تلقيه وفهمه، ليؤكد به أن مَن أعرض عنه وهو بهذه العربية المبينة الدقيقة، فقد أعرض عن الحق الواضح. وفي هذا عظيم الثناء على القرآن، وعلى اللغة العربية عموماً، وعلى فصاحة وبلاغة القرآن العظيم.

فقد أشاد سبحانه وتعالى باللسان الذي أُنْزِل به ﴿ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ ليفيد المدح والثناء. فهو باللسان العربي، وباللغة العربية، ليعطي ويبين منزلة التكريم للنبي عليه الصلاة والسلام بأن القرآن العظيم نزل بلغته العربية، كما أن في ذلك بيان وإشادة لهذه اللغة العربية الممدوحة بهذا القرآن العظيم الذي نزل بها. وفيه تكريم للسان العربي، الذي يلزم بهذا الشرف والتشريف العناية بهذه اللغة التي تشرفت بأن نزل القرآن الكريم بها.

إذ خصه وسماه الله سبحانه وتعالى بنوع اللسان الذي أُنْزِلَ به ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ ليفيد غاية المدح والثناء. وكونه ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ فإنه يُحَمِّل من آمن به من العرب مسؤولية التكليف بإبلاغه لغير العرب. مما يتطلب بذل الجهد في فهمه، والإلمام بلغة غيره، ونشره ونشر تعليم اللغة العربية، لينتفع بذلك أصحاب اللسان غير العربي. وبذل الجهد في ذلك.

وبعد أن وصف الله تعالى القرآن العظيم بما هو حقه المبين، لكماله ومنزلته ورفعته، يخبر سبحانه وتعالى بعد ذلك بالهدف والغاية منه فيما يخص هذا الإنسان، فيقول عَزَّ وجل ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ إنا جعلنا هذا القرآن الكريم عربياً لكي تعقلوا ما فيه من العلم، بتفهم معانيه، وأحكامه، ومواعظه، ومعرفة الحلال والحرام، وما يجب عليكم.

ومن دقائق البيان أن قوله تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ أفاد التيسير والتسهيل لهم من أجل الغاية والهدف وهو ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ والتعقل هو الفهم الذي ينتج منه الإدراك للشيء إدراكاً صحيحاً، فيحصل به العمل الذي يجعل تصرفات الإنسان مُحكمة، بسبب أنها مبنية على منهج صحيح متين قوي. مما يدل ويفيد أن من تعلم القرآن فهماً لمعانيه ومقاصده وأحكامه ومنهجه، فإنه يجعل منه شخصاً عاقلاً وحكيماً، يضع الأمور موضعها. فمن أراد هذه المنزلة فعليه بفهم القرآن الكريم. مما يفيد أن من واجب أهل الإسلام العناية بهذا الكتاب العظيم، تعليماً ونشراً له، حتى يصبح المجتمع المسلم على أكمل ما يكون عليه الإنسان.

كما أن من فوائد الآية الكريمة أن تصدر البيان فيها بضمير الفخامة والعظمة ﴿ إِنَّا ﴾ ليفيد: إظهار العناية الخاصة بالقرآن الكريم، والتعظيم له، ولشأنه، ولما فيه من العلم الذي يُعَقِّل الإنسان في مسار فهمه وتصرفاته، وعلاقاته، مع ربه عَزَّ وجل، ومع نفسه ومع غيره في جميع مستويات العلاقات مع الآخرين.

كما أفادت دلالة ﴿ لَّعَلَّكُمْ ﴾ في هذا السياق اطماع ودفع الْمُخَاطَبين لتلاوته ومعرفة قوته، وغزارة ما فيه من البيان الذي يغرس في الإنسان التعقل في كل أمر وشأن. وأن إنزال هذا القرآن الكريم، وبعث الرسول صلى الله عليه وسلم دليل على رحمة الله تعالى بالعباد، وأولهم المخاطبين به، لعلهم يتعظون بما في القرآن العظيم من المواعظ، فيتبعون رسول الله صلى الله عليه وسلم. وبما يحفزهم إلى تعقله والعمل به والدعوة إليه.

ثم يتدرج البيان الكريم في إظهار منزلة القرآن إلى أنه محفوظ في اللوح المحفوظ عند ربنا تبارك وتعالى ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ وإن هذا القرآن المبين، الذي أنزلناه عربياً واضحاً

ومفصلاً مبيناً ﴿ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ أي: هو في اللوح المحفوظ. كما قال تعالى في سورة البروج ﴿ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ﴿٢١﴾ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ﴿٢٢﴾ ﴾ وأعطت دلالة الأم في قوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ معنى الأصل. لأن أم كل شيء: أصله وأساسه. فأصل القرآن محفوظ في اللوح المحفوظ. وبالتالي فهو منزه من أن يصل إليه أحد، ومنزه من أن يغيره أحد. ثم يزداد البيان توضيحاً بالمزيد من مكانة ومنزلة القرآن، فيقول تبارك وتعالى ﴿ لَدَيۡنَا ﴾ أي: عندنا في السماء، أي: أن اللوح المحفوظ الذي فيه القرآن، عندنا في السماء. ثم يزداد الارتقاء بمنزلة القرآن الكريم، فيقول عَزَّ وجل عن القرآن العظيم بأنه ﴿ لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ أي: رفيع المكان والمكانة والمنزلة والشرف. وأيضاً بأنه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ أي: مُحْكَم في ذاته، ومحفوظ من النقص أو التغيير.

والآية الكريمة معطوفة على الآية التي قبلها، ألْمُقسَم بها، فدخلت بذلك ضمن دلالة القسم. مما يبين شرف ومنزلة ومكانة القرآن في الملأ الأعلى. كما زاد هذا التشريف العظيم للقرآن الكريم أنه عند الله تعالى، فدلالة ﴿ لَدَيۡنَا ﴾ تدل على منزلته وعلوه، إذ نسب الله تعالى مكانه إليه عَزَّ وجل ﴿ لَدَيۡنَا ﴾ فأعظِم بها من منزلة ومكانة سامية. وبالتالي فإنه في الملأ الأعلى، وكونه في الملأ الأعلى تنبيه وتنويه إلى ما يجب على أهل الأرض من تعظيم وتنزيه كتاب ربهم، وأن يُشرفُوه ويعظموه، وأن يتلقوه بكل حفاوة وتكريم وامتثال. فكما هو مُعَظَّم عند أهل السماء، فواجب أهل الأرض تعظيم ما عظمه ربهم وخالقهم تبارك وتعالى. مما يدل على عظمته وعظيم ما فيه، وأن الله تعالى من رحمته قد شَرَّف العباد بهذا القرآن العظيم. وكذلك فيه دليل على منزلة وشرف من أُنزل عليه القرآن، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم. كما يدل على مكانة ومنزلة المعتنين بالقرآن الكريم حفظاً ورعاية، ونشراً، وتفسيراً، وتعليماً وتدريساً له. بل من دقة التشريف للقرآن الكريم البياني أن أشار إليه سبحانه وتعالى في مطلع هذه الآية باسم الإشارة ﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾ الملتصقة بنون التوكيد، ليفيد التعظيم والتفخيم والتبجيل للقرآن العظيم، كما أكد نون التوكيد الذي التصقت به اسم الإشارة، أنه في أم الكتاب، عند الله تعالى. رفعة ومنزلة وحفظاً.

وبعد بيان عظيم منزلة ومكانة القرآن العظيم، يوضح تبارك وتعالى الأمر والشأن الذي يستوجب من أهل الأرض أن يُجلُّوا القرآن ويعظمونه، إذ أنكر وعاتب ولام سبحانه وتعالى أولئك الذين لم يتعاملوا مع القرآن الكريم المعاملة التي تليق بمقامه ومنزلته، من الاحترام والتقدير والتقديس، والشكر لله تعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ﴾ أنطوي ونعرض ونَعْدِل عنكم ما أكرمناكم به من نزول القرآن إعراضاً بسبب إعراضكم وإنكاركم للقرآن العظيم، وعدم حفاوتكم به، وشكر ربكم على

أن أنزل هذا الكتاب العظيم عليكم؟ فهو سؤال يفيد اللوم والعتاب لهم، مع التوبيخ والتهديد لِمَا كان منهم من مقابلتهم نعمة القرآن الجليلة بالصدود والإنكار.

وقد استهل سبحانه وتعالى الآية الكريمة بجملة ﴿ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ﴾ أنمسك عنكم نعمة ﴿ ٱلذِّكۡرَ ﴾ الذي هو القرآن. أننذوده عنكم ونترككم، فنولي عنكم الذكر ﴿ صَفۡحًا ﴾ أي: إعراضاً عنكم. وسماه هنا بالذكر، لما فيه من التذكير بما ينفع الْمُخَاطَبين به في الدنيا ولآخرة، فيعيدهم للفطرة السليمة، وإلى الحق عن باطلهم، وإلى الإسلام عن الكفر، وإلى مكارم الأخلاق بدلاً من منكراتها ومساوئها. أفنمسك عنكم الذكر فلا تُوعظون، ولا تُعَلَّمُون، ولا تُؤمرون ولا تُنْهون. فدلالة ﴿ ٱلذِّكۡرَ ﴾ واسعة المعنى، تستوفي جميع ما يتعلق به في كل جانب من جوانب التعليم، الذي به يعرف ويتذكر الإنسان ما عليه لربه سبحانه وتعالى من الحقوق والواجبات، وما لغيره في كل أمر وشأن، من أمور الدنيا والآخرة. فهي دلالة عظيمة فيما حوته من المعاني والمقاصد.

وقد أكد تبارك وتعالى الضرب عنهم بالصفح ﴿ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا ﴾ الذي هو الإعراض. فالصفح يفيد معنى الإعراض. بما يفيد: أتريدون أن نمسك عنكم نعمة الذكر، وألا نلتفت إليكم إزاء إسرافكم في العناد، ومحاربتكم لكتاب ربكم سبحانه وتعالى ودينه القويم، ورسوله صلى الله عليه وسلم، فإنكم لن تحظوا بذلك الصفح والإعراض. لأن سياق الآية الكريمة ورد بصيغة الاستفهام التقريري، فهو سؤال لهم، بما يفيد التهكم بهم والإنكار عليهم مع التهديد والوعيد بِمُضِي أمر الله تعالى ولو كره المشركون. أتريدون ألا نلتفت إليكم ونهملك، فلا نبالي بكم، فنمسك عنكم وعن غيركم نعمة الذكر. أتريدون هذا؟ فإنه لن يكون لكم ذلك، بل سيمضي دين الله تعالى. بما يفيد: فلن نترك العباد هملاً من غير إرشاد. فإن إقامة الحجة حاصلة عليكم وعلى غيركم، فمن اهتدى فلنفسه، ومن كفر فعليه كفره، وما يستحق من العذاب.

ثم يبين عَزَّ وجل سبب ذلك ﴿ أَن كُنتُمۡ قَوۡمًا مُّسۡرِفِينَ ﴾ أي: قد تجاوزتم الحد في الإنكار، والعناد بالباطل. مما يبين شدة الذي واجهه صلى الله عليه وسلم من صدود قومه عنه، وعن القرآن العظيم الذي يدرك كل عربي أنه ليس إلا من عند الله تعالى، كما قال أبو الوليد، عتبة ابن ربيعة: أني قد سمعت قولاً، والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة. يا معشر قريش! أطيعون واجعلوها بي، وخَلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكوناً لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم[1] ومع هذا

---

(1) ابن هشام السيرة النبوية (١/٣١٣-٣١٤)

الاعتراف المؤكد منه، فإنه لم يدخل في الإسلام، مجاراة لكبراء قومه. فهو مثال للإسراف، برد الحق الذي أيقنوه بلا شك ولا ريب، بل عرفوه معرفة جازمة، جازمين به أنه من عند الله عَزَّ وجل.

وقد ورد تقرير إسرافهم بصيغة السؤال ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ لتكون دلالتها مع الشطر الأول من الآية ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾ كونكم متجاوزين للحد في الإعراض، والمحاربة للقرآن العظيم. ليعطي معنى: فهل كونكم قوماً مسرفين في العناد بالكفر ومحاربة الحق تريدون أن نتوقف عن نشر هذا الدين؟ فإن الأمر والشأن ليس كما تريدون، بل كما يريد الله رب العالمين. فاستمرت دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك لِحِلم الله تعالى على العباد، ورحمته ولطفه بهم، إذ كرر دعوتهم، فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم، ويصبر على أذاهم، حتى مَكَّنَهُ اللهُ تعالى مما قضى به سبحانه وتعالى ولو كره الكافرون. فنحمد الله تعالى على هذه النعمة العظيمة الجليلة.

وبعد أن أوضح سبحانه وتعالى توغلهم في معاداة رسوله صلى الله عليه وسلم، وإنكار وتكذيب كتابه العظيم، يتوجه الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم بما يقوي صبره، ويعزز إرادته، ببيان ما وقع على من سبقه من المرسلين، فقال تعالى ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فما أكثر ما أرسلنا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم من المرسلين في الأمم السابقة، فكذبوا رُسُلَهم كما أنت عليه اليوم، فصبروا حتى حكم الله تعالى بحكمه على من جحدهم، بما أصابهم من العذاب. وقد أورد الله تعالى كثرتهم بحرف ﴿وَكَمْ﴾ الذي يفيد التعدد والكثرة من غير تحديد للعدد، لإفادة المبالغة في الكثرة، وتشابه ما وجد المرسلون من أقوامهم. وفي هذا توطين للرسول صلى الله عليه وسلم على الصبر بمثل حال من ماثلوه من المرسلين السابقين. مما يفيد في الحياة العملية قياساً على ذلك أهمية أن يُشَدُّ من أزر الْمُكَلَّف بعمل أو مهمة بما قد يواجه، حتى لا يُفَاجَأ، فَيُوطِّن نفسه على الاحتمالات الممكنة، وأن عليه بالصبر والمثابرة والمحاولة، وعدم اليأس، فإن في الصبر الظفر.

ثم يتدرج التوجيه الكريم من العام إلى شيء من التفصيل، فقال عَزَّ وجل ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فما أن يأتي تلك الأقوام السابقة من رسول من عند ربك، ليرشدهم ﴿إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ إلا وقابلوها بالسخرية والاستهزاء، فلم ينتفعوا بما جاءهم به، لصدودهم وإعراضهم، الدال على قوة امتناعهم، مما يبين أن هذا الإعراض هو منهجهم ودأبهم وطريقتهم مع آيات ربهم تبارك وتعالى. فامتناعهم هو امتناع جحود وتكذيب للحقائق. مما يدل على أن الإنسان قد يتعامل مع الحق بالكبر والاستعلاء، مما يستوجب الانتباه لهذه الخصال الذميمة، وترويض النفس للحق وقبوله، والعمل به أياً كان هذا الحق، سواء كان من حقوق الله تعالى أو حقوق غيره من الناس.

ومن دقائق البيان هو الجمع بين الفعل المضارع المستمر وبين ماضي الحدث وانتهائه. فقد ورد الإتيان بصيغة المضارع ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم ﴾ لإفادة تجدد وتكرار تتابع المرسلين على الأمم السابقة، كما ورد فعلهم من الاستهزاء أيضاً بصيغة الفعل المضارع ﴿ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ لإفادة تتابعهم واستمرارهم في الاستهزاء مع كثرة تتابع ما يأتيهم من الحق، حتى جاءهم ما يستحقون من العذاب، بينما ورد زمن تلك الأحداث بصيغة الماضي ﴿ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ ﴾ للدلالة على أنه فيما سبق من الأزمنة الماضية. بل إن من مبالغتهم في الاستهزاء أن نفى البيان الكريم جميع الحالات الممكنة معهم وحصرها في الاستهزاء ﴿ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ بما يفيد توافقهم في ذلك، لأن قادتهم وكبراؤهم يريدون استمرار هيمنتهم على غيرهم بالاستعلاء، واستعباد غيرهم، وامتهانهم، فتصدوا للحق، وتابعهم المتابعون لهم، تقرباً لكبرائهم. مما يفيد أن على الإنسان أن يلزم الحق، ولا ينظر لمن تبع الباطل، ولا يلتفت لكبار القوم عن الالتفات للحق، ولا يقيس الحق بما عليه الكبراء، وما يتجهون إليه. بل ينظر للحق في ذاته. ويُقاس على ذلك في جميع التعاملات، وعند التشاور، وعند تداول الآراء، فعلى المرء أن يذكر الحق لغيره، ويتبعه.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بما كان منه عَزَّ وجل مع أولئك المستهزئين من الأقوام السابقة، بما يُرشد ويعظ به قوم الرسول صلى الله عليه وسلم. فقال جَلَّ في علاه ﴿ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ فدمرنا تلك الأقوام المستهزئة مع أنهم أشد من قومك أيها الرسول ﴿ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾ أشد قوة في أفعالهم، وما كان من آثارهم في الأرض، بما شيدوا وبنوا من البناء والسدود، ونحت الجبال، وإقامة المزارع، والبساتين والقلاع ﴿ وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ وانتهى شأنهم على ما كان عندهم من القوة والتمكين. بما يفيد عليكم أيها المشركون المعاندون لرسولكم محمد صلى الله عليه وسلم، عليكم بالاتعاظ ممن كان قبلك، مع ما كانوا عليه من القوة التي تفوق قوتكم، ومع هذا أهلكناهم ودمرناهم. فانتبهوا واتعظوا قبل أن يحل عليكم ما تستحقون من العذاب. وكذلك عليكم بالاتعاظ من أن الجميع راحل عن الدنيا كما مضى مثل من كان قبلكم من الأمم التي مكناهم من عمارة الأرض أكثر مما أنتم عليه. فاعتبروا وأطيعوا خيراً لكم وأحسن. وإنها لموعظة عظيمة وجليلة، تبين رحمة الله تعالى بالعباد، إذ يعظهم ويحذرهم من العاقبة، وذلك رحمة بهم. ولكن المستكبر والمعاند والحاسد، والمغرور بفتنة الدنيا وشهواتها يتصدى للحق ويحاربه، فله ما كسب من العذاب الشديد.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ

مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

يخبر الله تعالى عن تناقض المشركين الذي يثير التعجب، فيقول سبحانه وتعالى موجهاً الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ إن حال هؤلاء المشركين مليء بالتناقض ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم ﴾ فلئن وجهت يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هؤلاء المشركين السؤال عن ﴿ مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾ فإنهم يعترفون بأن الذي خلق السماوات والأرض هو الله تعالى، وليس لمعبوداتهم في الخلق شراكة مع الله سبحانه وتعالى ﴿ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ فهم يجردون أصنامهم من صفة الخلق. مما يؤكد أن حالهم على هذا الأصل هو حال من يحتاج للتذكير فقط. بل إنهم وصفوا الله تعالى بأنه ﴿ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ أي: أن خالق السماوات والأرض هو المتصف بالعزة والعلم. فقالوا: إنه ﴿ ٱلۡعَزِيزُ ﴾ أي: الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة. والصفة الثانية: ﴿ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ أي: الموصوف بكمال العلم، الذي لا يغيب عنه شيء أبداً، حتى ما يكون في الضمائر، والسرائر، والنوايا. فلا غيب على الله تعالى. كما يفيد ﴿ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ المبالغة في ذلك، بامتداد المعنى إلى أقصى غايته. فله كمال العزة والعلم. ومع أنهم يدركون هذه الصفات لله تعالى ويقرون بها، ويقرون بأن الله تعالى هو لا غيره خالق السماوات والأرض، ويجردون ما يعبدون من الخلق، فإن حالهم وفق هذا المفهوم يستوجب الطاعة لله تعالى، والاستجابة لدعوتك أيها الرسول رغبة ورهبة: فإن إدراكهم هذا يتطلب منهم الرهبة من قوته وقدرته سبحانه وتعالى، وكذلك الرغبة في رحمته التي منها إنزال القرآن العظيم على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، هداية وحجة لمن يصدق ويؤمن به. وبالرغم من ذلك فإنهم يشركون بربهم غيره في العبادة. مما يدل على العجب من أمرهم المتناقض. وفي هذا تحليل لشأنهم، وشأن تفكيرهم، بما يدل على أن كفرهم وعدم استجابتهم نابع من محبة العناد والاستعلاء والحسد.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى ما يتعلق بإسداء النعم عليهم، فيقول تبارك وتعالى ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ فإن ربكم سبحانه وتعالى هو الذي خلق

السماوات والأرض، التي اعترفتم أنه خالقها ومنشئها، فإن من تفاصيل إنعامه عليكم أنه هو ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ أي: جعل الأرض منبسطة، ممهدة بفيض تدبيره وعظيم حكمته، لتستقروا فيها، بل إنكم أنتم أيها العباد المخصوصون بذلك، فجملت ﴿ جَعَلَ لَكُمُ ﴾ تفيد أنكم أنتم المخصوصون بها، بأن جُعِلَت ﴿ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ منبسطة، ممهدة بفيض تدبيره وعظيم حكمته، من أجل استقراركم. وبالتالي كيف تعبدون غيره، ممن لم يصنع لكم شيئاً. الأمر الذي يستوجب عليكم إخلاص العبودية له عَزَّ في علاه، والشكر والطاعة لربكم على هذا الإنعام، وهذا التكريم المخصوص به هذا الإنسان.

كما يمتن عَزَّ وجل على العباد بما جعل لهم فيها من الطرق الكثيرة، فقال تبارك وتعالى مذكراً لعباده، وملفتاً لهم بنعمة السُبُل ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ وأنشأ لكم بين الجبال سبلاً وطرقاً تسيرون بينها، وأودية وممرات للسيول، حتى لا تؤذيكم في مساكنكم ومزارعكم. بل إن هذا الجعل هو ﴿ لَكُمْ ﴾ فكل ما جعله في الأرض هو لكم أيها الناس، أنتم المخصوصون بذلك الإنعام والإكرام، فهو إكرام من ربكم لكم، وإحسان وتفضل به عليكم، من أجل ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ لعلكم بذلك التفضل تهتدون للحق بما أنعم به ربكم عليكم. وتشمل دلالتها كذلك: لعلكم تهتدون في سيركم وتنقلكم لقضاء مقاصدكم وحوائجكم بين البلدان والأقطار، فلا يصعب عليكم السير لأي عائق من الجبال أو غيرها. مما يثير السؤل عن عدم طاعتكم لربكم بما جاءكم من الحق؟ مع قرينة هذا الإنعام الذي تُقِرُّون به، ثم تتوجهون للشرك مع إقراركم بأن معبوداتكم من دون الله تعالى مجردة من الخلق، فليس لها أن تخلق شيئاً. فهل تجعلون العناد والكبر والحسد وشهوات الدنيا سبب لكم في معصيتكم لربكم عَزَّ في علاه؟ فبهذا أقام عليهم ربهم الحجة، وألزمهم بما يجب عليهم من الطاعة والامتثال، وأثبت أن ما دعاهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم هو ما يقتضيه اعترافهم. وأن عدم إفرادهم لله تعالى بالعبادة وصرفها لمن لا يستحق هو باطل تقرون به. ومنافي لما دعاكم إليه رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم.

ومن دقائق البيان هو تكرار ﴿ لَكُمُ ﴾ ثلاث مرات، من غير أن يعطف بقية الجملة على الأولى، وذلك لإظهار وإبراز الإنعام والتكريم من الله تعالى لهذا الإنسان. فالأولى: قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ والثانية قوله تعالى ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ والثالثة الملتصقة بحرف **(لعل)** من قوله تعالى: ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ مما يدل على أن كل كلمة وكل حرف في القرآن مقصود بعينه، ليتحقق به هدف وغاية، أو أهداف وغايات. ليدل على عظمة كلام رب العالمين.

ثم يعطف سبحانه على ذلك الإنعام العظيم إنعاماً آخر، وهو ما أنزل من السماء من الماء الممطر على الأرض، مع حفظه لهذا الماء في جوف الأرض، لينتفعوا به في شربهم وزرعهم وسقيا بهائمهم، وتحصيل الأرزاق المتنوعة بحسب حاجتهم، فيقول عزَّ وجل ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًاۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ فبدأ الله تبارك وتعالى إظهار هذه النعمة الواسعة العظيمة بالمصدر الذي جعله سبباً لها، وهو الماء ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ فيا أيها العباد قد أنزلنا لكم بقدرتنا ماء من السماء، بقدر محدود ﴿بِقَدَرٍ﴾ أي: بمقدار محدد ومعيَّن، وذلك بتقديرنا له، فلا يكون مجحفاً في النزول، فيحصل لكم به الجدب والجوع والعطش، والمعاناة المتعبة في البحث عنه، وكذلك بالقدر الذي لا تحدث معه الفواجع بالفيضانات والهلاك والتدمير. بل بالقدر الذي ينعشكم به، ولذلك يفرح الناس بإطلالته، وعند نزوله، وبعد نزوله، تأكيداً على النعمة، وتأكيداً على أنه مصدر فرح وسرور، لأن الله تعالى قدره تقديراً محكماً. فهم في طمأنينة لِمَا اعتادوا من كريم عطاء ربهم. كما أن الفرح به عند نزوله تأكيد لما اعتقدوا واعتادوا من رحمة ربهم تبارك وتعالى، ومزيد الفرح والاستئناس به بعد نزوله تأكيد ثالث بأن النتيجة كانت كما يحبون ويأملون. فتلك المشاعر البشرية تدل على ما بينه ربنا تبارك وتعالى بأنه ينزل هذا الماء بالقدر الذي يحصل منه الخير، ولا يحصل منه الشر.

وسَمَّى اللهُ تعالى حبات المطر بما ستكون عليه ﴿مَآءًۢ﴾ فسماه بما سيكون عليه بعد نزوله وتجمعه، وبما سيكون عليه من أثر، وبما سوف يُستعمل له، ليفيد النتيجة والمحصلة التي ينبت بها الزرع، فهي القطرات المتتابعة التي سيكون منها الماء، فإنه سيتحول بمجموع تلك القطرات المتتالية والمتعاقبة بما سيتكون منه الماء الذي تحيا به الأرض بعد موتها. فالهدف من المطر هو تحصيل الماء، لتلبية حاجتكم وافتقاركم إليه، فورد ذكر المحصِّلَة عن هيئة المطر، حتى يتناسب ذكر الماء مع مقام الحاجة القائمة. فهذا من دقائق البيان.

ثم يخبر الله تعالى عن عودة الحياة للأرض بهذا المطر بعد أن كانت ميتة جرداء من الحياة ﴿فَأَنشَرْنَا﴾ أي: أحيينا ﴿بِهِۦ﴾ بهذا الماء من المطر ﴿بَلْدَةً﴾ وهي مفرد بلاد، وهي الأماكن الواسعة المحددة، والتي ممكن أن تكون مدينة أو قرية، أو مجموعة مدن وقرى. وهي الأرض الْمُعَيَّنَة والمقصودة التي يريد الله تعالى أن يحيها من بين جنسها. ومن دقائق البيان أن أفرد سبحانه وتعالى البلدة، وجعلها أيضاً نكرة ﴿بَلْدَةً﴾ ليفيد الأرض الْمُعَيَّنَة والمقصودة التي يريد الله تعالى أن يحيها من بين جنسها، وكذلك ليست أرض محددة، بل كل أرض ميتة يريد الله تعالى إحياءها. ومن دقائق البيان أن نسب النشر له سبحانه وتعالى

﴿ فَأَنشَرْنَا ﴾ ليدل على العناية والرحمة بالعباد، مما يستوجب شكر ربهم بطاعته عَزَّ وجل، وامتثال شرعه الحكيم. وطاعة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم.

وقد أفادت كلمة ﴿مَّيْتًا ﴾ أنه لا حياة فيها، أي: فلا زرع فيها، نتيجة الجفاف. وفي هذا الإحياء بعد الممات آية من آيات الله تعالى التي تبين البعث بعد الموت، فالذي يحي الأرض بعد موتها، كذلك يحي الإنسان بعد موته. فكما يحي الأرض بعد موتها، كذلك يُحي الإنسان بعد موته. فأين المشكلة والمعضلة مع ما ترون من عظيم قدرة ربكم عَزَّ وجل. ولذلك تقدم إحياء الأرض على غيره من الأنعام والناس لإظهار الدليل على الاستدلال بإحياء الموتى من الناس. وكذلك من فوائد تقديم إحياء الأرض على الأنعام والإنسان، أن مدار حياة الإنسان والأنعام مبنية على حياة الأرض. مما يدل على منهجية ترتيب الأولويات، كيف تكون. فالأول هو ما يقوم عليه غيره، ثم الذي يليه، وهكذا. كما قدم كذلك الأنعام على الإنسان، لأن طعامهم قائم عليها.

فبعد أن كانت الأرض ميتة بالجفاف، عادت الحياة إليها بالماء الذي جعله الله تعالى سبباً لحياتها وانتعاشها، فَدَبَّت الحياة في الأرض بظهور الأعشاب والزروع المختلفة، فأصبحت مخضرة بالحياة والانتعاش؛ بعد أن كانت جافة ميتة لا حياة فيها. فإنها آية في البعث والنشور بعد موت الإنسان ﴿ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ وبمثل ذلك يكون خروجكم من الأرض، أي: بمثل ذلك يكون البعث والنشور. فقدم سبحانه وتعالى إحياء الأرض على غيره من الأنعام والناس لإظهار الدليل على الاستدلال بإحياء الموتى من الناس. فحالة حياة الأرض بعد موتها هي حالة مماثلة لما سيكون عليه الإنسان من الحياة بعد موته وهلاكه، فالذي بقدرته أحيا الأرض بعد موتها، فإنه بقدرته يُّحي الإنسان بعد موته. فبمثل هذا الإحياء للأرض بعد موتها يكون الإحياء والبعث للإنسان من القبور، فيعيدهم للحياة كما بدأ خلقهم من قبل، ليحاسبهم ويجازيهم، كلاً بما قدم.

ففي هذا تعليم للعباد بالاستنتاج والقياس، فهو استنتاج وقياس وتعليم منه سبحانه وتعالى بآياته الكونية على الأمور الغيبية، بما يُوجب على الإنسان أن يؤمن بالغيب، فهو تعليم بأدق مجريات الكون ﴿ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ كذلك تبعثون، قياساً على حياة الأرض بعد موتها، الذي ظهر فيه كمال قدرة الله تعالى، وسهولته. فإن في آيات إحياء الأرض بعد موتها لعبرة وموعظة، وبيان لكيفية النشور، مما يستوجب على الناس أن يُعمِلُوا عقولهم بالتفكر والتأمل، والقياس بما يرون على ما لا يرون، من البعث بعد الموت، والحساب، والجنة والنار. فإن هذا من دلائل قدرته عَزَّ وجل على كل شيء سبحانه وتعالى. مما يبين أن منهج الإسلام في تعليمه ودعوته ومواعظه وعبره قائم على الاستدلال العلمي، وعلى الحقائق التي لا يزيغ عنها إلا معاند ومكابر، فَيُهلِك نفسه بالكفر والطغيان والعصيان. وهو منهج عظيم في طرائق التعليم من خلال تعليم الإنسان مبدأ التعليم بالقياس والاستنتاج. وكذلك هو منهج عظيم في طرائق التعليم لمن تقصاه وتتبعه، ليخرج بقواعد في المقارنة، وفي طرائق الاستدلال، والاستنتاج، والقياس، وأنواعه، ومجالاته.

وهي آية متعلقة بعدد من الحواس، إذ تثيرها جميعاً في وقت واحد، وهذا من عجائب ودلائل قدرة الله تعالى. فهناك حاسة النظر، بما تراه من السحب والبرق، فيستثيرها، وما يتبعه من الرعد، فتتشنف لها الآذان عند سماعه، مع هيبة له وخوف، بما يثير قوة القلب، ليكون حاله بين الخوف والرجاء والطمع، وما يتبع ذلك من سرور القلب بما يرى من الغيث، وما ترى العين من نزول الماء من السماء، وما تستطيبه الآذان من سماع سقوط حبات المطر، وما يكون من الماء على الأرض، وما تترقبه وتأمله من حياة الأرض به بعد موتها. فإنها آيات متعددة يكشفها الله تعالى لعباده، ليتعظوا بها، فيقروا بالبعث بعد الموت، لما يرون من كمال قدرته سبحانه وتعالى في إحياء الأرض بعد موتها، بل إن في تكرار الإحياء للأرض، بعد تكرار موتها ما يقرر وحدانية الله تعالى وألوهيته وربوبيته وسلطانه عَزَّ وجل. فيستوجب ذلك أن يؤمنوا ويطيعوا ربهم، ويسبحوه ويشكروه.

بعد الاستدلال بخلق السماوات والأرض، ثم الاستدلال بالإنعام والتفضل، بأن جعل تبارك وتعالى الأرض مهداً، وسلك فيها سبلاً، وما أنزل سبحانه وتعالى من المطر، ثم إحياء الأرض الميتة بذلك الماء بعد جفافها وموتها، ثم بعد كل ذلك التدرج العظيم ينتقل التوجيه الكريم إلى بيان إنعامه سبحانه وتعالى على عباده بوسائل الركوب والتنقل، الذي تتحقق به المعيشة الهنيئة، وتنمو المصالح وتزدهر بين العباد، فقال تعالى ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ وكذلك فإن ربكم هو ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ والأزواج هي: الأصناف، قاله ابن قتيبة رحمه الله تعالى. وقال الجوهري رحمه الله تعالى: الأزواج القرناء[1] وغلب الزوج على الذكر والأنثى، من الإنسان ومن الحيوان على مختلف أصنافها، وسائر أجناسها، ويدخل في ذلك ما تنبت الأرض من سائر الأصناف، بما يدل على التعدد، والتنوع، والكثرة، والمماثلة المتكررة بينهم، في أصنافها المتعددة. وكل صنف منها: زوج. ومجموعها أزواج. فخلق سبحانه وتعالى جميع الأصناف مما تنبت الأرض ومن الحيوان والدواب وكذلك من جنس الإنسان: الذكر والأنثى، مع التنوع فيما بينهم، في الألوان والأحجام والأطوال، والتفكير والقدرات. فهذه آيات عظيمة دالة على كمال قدرة الله تعالى، ودالة على كريم تفضله على الإنسان، الذي ينتفي به كل مستحيل على الله تعالى، ومن ذلك البعث والنشور.

ثم ذكر تبارك وتعالى إنعامه فيما سخره من وسائل التنقل، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ وجعل لكم ربكم من وسائل التنقل التي تنقلكم، وتنقل حوائجكم وتجارتكم أنواعاً عديدة. فبدأ تبارك وتعالى بالفلك ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ ﴾ وهي السفن، بتسخيرها لكم. ثم ثنى سبحانه وتعالى

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (١٤٢/٣)

بالأنعام ﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ ﴾ فينوه سبحانه وتعالى إلى ما سخره للعباد من الأنعام زيادة على السفن، فإنكم على هذه الأنعام وعلى البواخر والسفن تحملون ما تريدون حمله ونقله، فسخرها لكم حتى تقضون عليها حوائجكم. ونوه عنها بالركوب ﴿ مَا تَرۡكَبُونَ ﴾ لأن الركوب هو أظهر مظاهر الاستخدام. فعلى تلك الرواحل من الأنعام التي تحملكم وتحمل أثقالكم براً، والبواخر والمراكب والسفن التي تحملكم بحراً، فتحملكم وتحمل معكم أمتعتكم وأثقالكم، من التجارة وعموم ما تريدون حمله، مما لا تستطيعون حمله على أكتافكم فلولا فضل الله تعالى عليكم بهذا التسخير، وهذا الامتنان العظيم لعجزتم أشد العجز في حمل ونقل ما تريدون من أحمالكم وتجارتكم.

وفي لفت النظر لآية تسخير تلك المراكب من الأنعام والفلك، وكذلك تسخير البحر لتلك الفلك التي تجري فيه بأمر ربها وإنعامه وتدبيره سبحانه وتعالى، فإنها مثار تدبر للبصر والبصيرة بالتفكر والتأمل، لِمَا ينتج عن ذلك من إدراك دواعي خلق الحواس والعقل في تحصيل الاستدلال للإنسان على الخالق العظيم بما خلق ودبر، فيحصل بذلك الإيمان بالخالق سبحانه وتعالى، وما يستوجب من طاعته عَزَّ وجل، والاستجابة للمرسلين، وما جاؤوا به من التنزيل والحجج والبراهين، وخاتمهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وأن من لم يستخدم عقله وحواسه فيما خُلقت له فقد حاد بحواسه عن الحق، وسلك بها مسلك الجهل والباطل.

وأن مَن تأمل التوافق بين الأنعام التي تمشي على الأرض، وبين السفن التي تعبر عباب البحار؛ لوجد غزارة من الدلالات والمعاني والمقاصد، سواء من حيث اتفاقها في حمل الإنسان والمتاع والتنقل، أو من حيث خصوصية مسار كل منهما، فهذا براً وذاك بحراً، وهذا خاص بالبر، وهذا خاص بالبحر. فإن في ذلك آية لمن تعقل وتفكر وتدبر، مِن أن هاتين الوسيلتين مع اختلاف هيئتها وتكوينها إلا أنها يتوافقان في حمل الإنسان وحمل ما يريد حمله ونقله من مكان لآخر، وسواء ما كان خاصاً بتنقلهم أو بحمل الأمتعة أو ما كان خاصاً بالتجارة وغيرها، فإن ذلك يقود ويؤدي إلى التأمل والتفكر في تدبير الله تعالى، وعظيم إنعامه عليكم، وعظمة تسخير ما خلق عَزَّ وجل، بأن سخر البحر للمراكب، وتسخير الرياح لدفعها، وتسخير الإنسان لبنائها، وتسخير الأنعام لركوبها، ومطاوعتها للإنسان. وكلما أكثر الإنسان التأمل ازداد به يقيناً على عظمة الله تعالى، ووجوب طاعته وتوحيده، وحمده وشكره، وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له، وازداد بذلك علماً بأن الله تعالى واحد أحد، فرد صمد، قد أنعم على عباده بنعم لا تُعد وإحسان لا يُحَدّ.

وبعد أن أوضح وبين عَزَّ وجل ما جعل وسخر لعباده للركوب من الفلك والأنعام يرشدهم تبارك وتعالى إلى أدب القول والاستخدام للفلك والأنعام وما شابهها، من الحمد والشكر والثناء على الله تعالى الذي سخر هذا لحمل الإنسان، وحمل متاعه وتجارته للتنقل بها حيث يشاء من الأرض، فقال جلَّ شأنه ﴿ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا

لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ﴾ فبدأ التوجيه الكريم ببيان علة وسبب التسخير، والتي تحمل كذلك وقت الحمد والثناء على الله تعالى ﴿ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾ لتستقروا عليها بالاستواء والتمكن من الركوب على ما سخره لكم من المركوبات، ويدخل ضمنها المستجدات من الطائرات والسيارات ﴿ ثُمَّ ﴾ أي: بعد الاستواء، والتمكن من الركوب، أي: بما يفيد بعد الاعتدال عليه، واستراحة الراكب بعد الانتهاء من عملية الركوب ﴿ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ ﴾ أي: تسترجعون هذا الإنعام عليكم، والفضل والخير الذي حصل لكم بهذا التسخير من ربكم، فجعلها ركوباً لكم، لتحملك وأمتعتكم وتجارتكم إلى مقاصدكم من الأرض. بما يفيد استشعار نعمة التسخير.

ومن دقائق البيان الكريم أن نسب نعمة التسخير له عَزَّ وجل ﴿ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ ﴾ لاستثارة تذكر النعمة، بأنها فضل من الله تعالى، فتستوجب الشكر، وليدرك المرء بتذكرها كيف لو لم يُسخر الله سبحانه وتعالى تلك المراكب من السفن والأنعام، وما استجد للإنسان من السيارات والعربات والقطارات والطائرات. وقد جعل عملية التذكر بعد الفراغ من الاستواء، والانشغال من عملية الركوب، وما يلزمها من التهيئة ﴿ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ ﴾ فجعله بعد تمام الاستواء، الذي يمثل الارتياح والاطمئنان، لينشغل بالحمد والشكر والذكر لله تعالى.

ثم عَلَّم سبحانه وتعالى الإنسان كيف يذكر نعمة ربه بالقول، بعد أن استذكرها بالقلب. فيقول جَلَّ جلاله ﴿ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ﴾ فتقولوا القول بألسنتكم ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ﴾ وهو يحمل معنى تنزيه الله تعالى، واستظهار قدرته، واستظهار إنعامه، إذ هيأ هذه المراكب بتسخيرها وتوطينها للإنسان. وهو تقرير واعتراف بنعمة المنعم وفضله سبحانه وتعالى. ثم الاعتراف بالعجز عن استخدام تلك المراكب لولا تسخيرها من الله تعالى لنا ﴿ وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ﴾ وما كنا لهذا مطيقين على امتطائه وركوبه لولا تسخير الله تعالى لنا تلك المراكب، ولا ضابطين له هذا الضبط الذي يمكننا منها على أحسن وأجود ما يكون. فهو تسخير مع قوة التمكين والسيطرة. فإنها نعمة عظيمة. وقياساً على ذلك يعتبر تسخير المستجدات من المراكب كالسيارات والقطارات والطائرات هو بما هدى الله تعالى الإنسان لهذه المخترعات، فلولا هدايته سبحانه وتعالى لَمَا تمكن الإنسان من تلك المخترعات، فالفضل يعود لله سبحانه وتعالى.

﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا مِّن قَبۡلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

ثم بعد أن ذكر تبارك وتعالى العديد من مظاهر إنعامه على عموم عباده بما أنعم من الخير والتسخير، يذكر بعد ذلك أنه بالرغم من هذا الإنعام الذي يُظهِرُ عظيم فضل الله تعالى على العباد، ويُظهر كمال قدرته إلا أن هناك من العباد من يجعل لله مثيل، فيشركه في عبادته، بما يبين أن هذا الإنسان فيه إنكار نعمة من أنعم عليه، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ ﴾ فمن قوة تعلقهم بالشرك أنهم بالرغم من اعترافهم بأن الله تعالى خالق السماوات والأرض، وأنه العزيز العليم سبحانه وتعالى إلا أنهم جعلوا لربهم نداً ومثيلا ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًا ﴾ فقد جعل هؤلاء المشركون لله من خلقه نداً ونصيباً. والجعل هنا ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ ﴾ أي: حكموا بأن له. قال ابن الجوزي رحمه الله تعال: أما الجعل هاهنا، فمعناه: الحكم بالشيء[١] وقال مجاهد رحمه الله تعالى عن دلالة ﴿جُزۡءًا ﴾ أي: جعلوا له ولداً وبنات من الملائكة. وقال آخرون: عني بالجزء ها هنا: العِدْل[٢] أي: المثيل والشريك. وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: كذبوا وافتروا في جعلهم بعض الأنعام لطواغيتهم، وبعضها لله تعالى، كما ذكر الله عَزَّ وجل عنهم ذلك في سورة الأنعام[٣] فجميع تلك المعاني هي من أعمال المشركين، فاستوعب بناء النص من الآية الكريمة ما كان منهم بسياق واحد، فاستوعب بغيهم السيء. وهذا من قوة بلاغة تراكيب ألفاظ القرآن المعجز في بنائه وسياقه.

وهذا الإشراك والإصرار عليه مع الاعتراف بأن الله تعالى خالق الكون يوضح ويبين عداوة الإنسان لنفسه، بالافتراء على من أنعم عليه، وعدم إخلاصه لمن شهدوا له بالخلق والعزة والعلم كما سبق بيانه. ولذلك

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٩٢/٧)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٦١/٢٠)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٣٥/٤)

قال تعالى عن مواصفات هذا الإنسان ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ فإن هذا الإنسان لجحود لمن أنعم عليه، فهو جحود ظاهر بائن لإنعام ربه عليه، وهو معنى ﴿ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ فهو مبارز ومُظهر لجحوده. إذ يعترف بأن الله تعالى عزيز، ثم يضيف له الولد والبنات من الملائكة بغير علم، وإنما هو افتراء من عند أنفسهم.

ومن دقائق البيان الكريم أن هذا الوصف جعله الله تعالى لجنس الإنسان ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ بما يفيد: أهمية الانتباه لهذه الخصلة، سواء في تعامل الإنسان مع ربه تبارك وتعالى، أو في تعامله مع جنسه من الناس. وإن من فضل الله تعالى أن جعل شريعته نوراً لهذا الإنسان، تعلمه وتربيه وترشده لخصائص نفسه، وتعالجها بالتعليم، والتشريع. الذي يصحح الأفهام، ويضبط الغرائز والشهوات، ليسير كل شيء في مساره الصحيح. مما يتطلب من الإنسان أن ينتبه لذلك. بل ويظهر ذلك في سلوك العباد مع بعضهم البعض، فإذا أحسن أحد على أحد زمناً طويلاً، ثم قَصُرَ إحسانه لأي سبب، قال، ما رأيت منه معروفاً. أو قال كان فلان، وقد تغير، فجعل حكمه وفق هواه، وعَدَلَ عما سبق من العطاء، وكأنه لم يكن.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى إبطال ما قالوا، فينفيه سبحانه وتعالى بأسلوب السؤال الاستنكار الذي يوبخهم به، ويقرر به عَزَّ وجل تنزهه عما قال المشركون وغيرهم. فقال جَلَّ شأنه ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَـٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴾ أم أن ربكم اتخذ ما لا تريدون من البنات وأعطاكم ما تحبون من البنين؟ أجعلتم لأنفسكم ما تفضلونه من البنين، وجعلتم لربكم المفضول من البنات؟ سؤال تقريع وتوبيخ ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ ﴾ أتفترون على ربكم الكذب؟ بأن نسبتم إليه البنات من الخلق؟ ﴿وَأَصْفَـٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴾ واصطفى لكم ما تحبون من الذكور؟ فأعطاكم ما تفضلون، وأخذ ما لا تفضلون. فتصفونه بما ترونه من النقائص، وتصفون لأنفسكم ما ترونه من الكمال وفق رؤيتكم الفاسدة.

فتعددت أوجه الإنكار في هذا السياق الكريم. فمن تلك الأوجه: الافتراء على الله تعالى بما ليس له. والافتراء لأنفسهم بما ليس لهم ذلك. فإن الله تعالى قد أوضح في سورة الشورى، أنه عَزَّ وجل هو الوهاب بما يشاء من الذكور والإناث ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ ومن أوجه الإنكار أنهم وصفوا لله تعالى ما لا يحبون، وخصوا أنفسهم بما يحبون. وفيه من الافتراء

كذلك التنقص من خالقهم سبحانه وتعالى، والترفع بأنفسهم. وبهذا السؤال الاستنكاري يقرر الله تعالى بطلان افتراءهم، بأسلوب التوبيخ والتقريع، مع بيان فساد معتقدهم القائم على الافتراء والكذب.

ثم يتدرج البيان إلى كشف استكبار وتعالي المشركين على ربهم من خلال إظهار حالة امتعاضهم، بتمعر وجوههم، وظهور الحنق عليهم إذا بُشِّر أحدهم بشيء من البنات اللاتي ينسبونهن لربهم جَلَّ جلاله. فقال تعالى ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ فإن مما يدل على سوء مقصدهم في حق ربهم، أنهم جعلوا له ما يكرهون من الذرية، بدليل أنه ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ﴾ إذا تلقى أحدهم البشارة ﴿ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ﴾ وهي الأنثى من المواليد ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أصبح وجهه مُتغير اللون إلى السواد، الذي يدل على امتعاضه، وقوة الحنق الذي أصابه، مما تفاجأ به، من أن المولود أنثى وليس ذكراً ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي: صامتاً لا يتكلم، فهو ممسك عن النطق جزعاً من هول الكرب والحزن الذي يشعر به، جراء ما بُشر به. فاجتمعت فيه حالتان: حالة نفسية في داخل نفسه بما ناله من الغيظ، والحالة الثانية: بما ظهر على وجهه من السواد إثر امتعاضه النفسي، فلم يستطع أن يخفيه عن غيره. ومع هذا يضرب بذلك مثلاً للملائكة، مدعياً أنهم بنات الله، فتعالى الله عما يقولون علواً كبيرا.

فعندما يأتي لأحدهم ما يجب أن يكون به مسروراً من المواليد الإناث، فإذا به يتأذى به منهن، فيتمعر وجهه، ويكسوه السواد من شدة تلك البشارة التي يكرهها ولا يتمناها ولا يحبها، بل يبغضها أشد البغض، لأنه يرى في الأنثى المنقصة، ويرى في الولد المعزة والتباهي به. وبالتالي كيف تصفون إذاً ربكم بأن له البنات؟ أتجعلون لأنفسكم ما تحبون، ولله ما تكرهون؟ فأحكامهم إذاً هي أحكام جائرة، فضلاً عن كونه افتراء محض. بل من شدة ما يصيب أحدهم أن وجهه يتمعر، وصدره يشتد كربة، فإن حاله كما شخصه وبينه سبحانه وتعالى بأنه ﴿ كَظِيمٌ ﴾ أي: صامت لا يتكلم، حتى أنه ممسك عن النطق جزعاً من هول الكرب والحزن الذي هو فيه على حد افترائه. فجملة ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ تبين الحالة النفسية والقلبية التي انعكست على مظهره الخارجي.

كما أفادت دلالة ﴿ ظَلَّ ﴾ الانقلاب والتغيير مع الاستمرار فيما انقلب إليه من سواد الوجه والكظم.

أي: أنه أشغله ذلك الأمر، وقلب عليه ما كان فيه من أمل، بأن يكون المولود ذكراً. وأفادت دلالة ﴿ بُشِّرَ ﴾ على أن الأصل أنها بشارة بالخير، لكنه حسب مقاييسهم الباطلة اعتبرها على غير حقيقتها. بل اعتبرها شر محض، فبدلاً من مقابلة هذه النعمة بالفرح والاغتباط، يقابل ذلك بالامتعاض. وفي كُرههم الشديد للأنثى دليل

على جهلهم بالمقاييس الصحيحة، مع تماديهم في البغي والجور في الاختيار والاصطفاء لأنفسهم. فكيف تكرهون الأنثى وهي النصف الآخر للرجل؟ وكيف تكتمل حياة الرجل لو انعدمت الأنثى؟ أتبنون أفكارَكم على ما تشتهون؟ دون تأمل للحق والحقائق، التي تثبت أن الحاجة للأنثى كالحاجة للرجل، فهناك أدوار ومهام لا تقوم بها إلا الأنثى، وهناك مهام لا يقوم بها إلا الرجال. فكان تمعر حالهم مبني على جهل شديد في المقاييس والاستدلال، ومع ذلك لا يمتثلون لما جاءهم من الحق الذي يصحح لهم أفكارهم في كل شأن من شؤون الدين والدنيا، والذي به سعادتهم في الدنيا والآخرة.

ثم ينتقل اللوم من الله تعالى والتوبيخ لمن جعل له سبحانه وتعالى البنات، فيقول عَزَّ وجل ﴿ **أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ** ﴾ كيف تجعلون مَن هذه صفاتهن قسمة لربكم، وتجعلون قسمتكم الذكور. فهو تأكيد لجرأتهم في التعدي على مقام الله ربهم سبحانه وتعالى. أيكون منكم أن تجترئوا على الله تعالى بما نسبتموه لربكم، ممن ﴿ **يُنَشَّؤُا۟** ﴾ أي: يُرَبَّى ﴿ **فِى ٱلْحِلْيَةِ** ﴾ أي: في الزينة، فَيُنَشَّأ ويُرَبَّى فيما تتزين وتتجمل فيه الأنثى، والحلية: اسم لما يتحلى ويتزين به. فوصف سبحانه وتعالى الأنثى بما غلب عليها من خصوصية التجمل، فهي محبة للتزيين بأنواع الزينة. أي: البنات اللاتي من شأنهن أن يتربين في الزينة، منذ صغرهن، ويستصحبن ذلك في حياتهن، لما وضع الله تعالى فيهن من الأنوثة التي تميل للتجمل والتزين، إلى درجة معايشتها للزينة منذ طفولتها وليمتد ويستمر معها ذلك في جميع مراحل وأطوار حياتها، فإن نشأتها كائنة على هذه الحال.

مما يفيد أن هذا من شأن النساء، فلا تلام على ذلك الشأن الفطري. لأن هذا من شأنهن ودأبهن، مبتعدات عن مواطن الخشونة، فإنهن ﴿ **فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ** ﴾ أي: إنهن في مواطن الجدال، ومحاجة الخصوم ضعيفات، غير ظاهرات في قوة الخصام والمخاصمة. وهذا الذي نسبتموه إلى الله تعالى من البنات. بما يدل على قوة فجوركم، إذ تنسبون له ما لا تحبون، وتنسبون لأنفسكم ما تحبون.

فإن صفاتهن في مواطن الجدال ومحاجة الخصوم، والمخاصمة فإنهن غير ضالعات ﴿ **غَيْرُ مُبِينٍ** ﴾ غير بائنات بقوة المحاجة، فلسن ضالعات وظاهرات في المخاصمة والمجادلة، فلا يظهرن في المناكفة للانتصار بالقول، وذلك لضعفهن في ذلك، فضلاً عن مواطن القتال والدفاع عن النفس، فإنهن لا يظهرن، لضعفهن وقصورهن المخالفة لمن حالتهن التزيين، بل لا تستطيع أن تدافع عن نفسها، فهي أحوج للرجل الذي يدافع عنها. وبالتالي كيف تجعلون مَن هذه صفاتهن قسمة لربكم، وتجعلون قسمتكم الذكور. فهو تأكيد لجرأتهم في التعدي على مقام الله ربهم سبحانه وتعالى، بتحليل الفارق بين ما نسبوه لربهم جَلَّ جلاله، وبين ما نسبوه لأنفسهم.

فقد تناول البيان الكريم تحليل شأن الأنثى تحليلاً دقيقاً لطبيعتها، التي لا تحبون أن تنسبوها لكم، بينما تنسبونها لربكم العزيز العظيم. وفي هذا البيان الكريم إيضاح الفرق بين المرأة والرجل، مما يفيد أن الله تعالى قد جعل لكل من الذكر والأنثى الطبيعة الخاصة التي تليق به، ويجب أن تُستثمر ويستثمر كل فيما خُلِق له. وبأن لا تُطالب المرأة بما ليس من خصوصيتها، كما لا يُطالب الرجل بما ليس من خصوصيته، وأن يعمل كل منهما فيما يوافق خُصوصيته الطبيعة. وليس في ذلك لوم على المرأة، ولا تقليل من شأنها لأن البيان قد ورد في تحليل الشأن والأمر وفقاً لما يكرهون أن ينسبونه لأنفسهم، بينما ينسبونه لله سبحانه وتعالى.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى عقابهم على ما كان منهم من افتراء الباطل، وذلك بكتابته عليهم، ومساءلتهم، وبما يفيد الوعيد الشديد لهم. فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ فهؤلاء المشركون زعموا بأن الملائكة الذين هم خلق من خلقه سبحانه وتعالى، أنهم من جنس الإناث. وهم لم يروا الملائكة، ولم يشهدوا خلقهم عندما خلقهم سبحانه وتعالى. وقد وصف الله تعالى قولهم بالجعل ﴿ وَجَعَلُواْ ﴾ والجعل هنا هو الافتراء بقولهم: أن ﴿ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾ فهؤلاء المشركون زعموا وحكموا بأن الملائكة الذين هم خلق من خلقه سبحانه وتعالى، وعبيد من عبيده، زعموا أنهم من جنس الإناث. وهم لم يروا الملائكة، وليس عندهم من الله تعالى دليل. ثم يبكتهم سبحانه وتعالى ويلجمهم بسؤال استنكار وتوبيخ ﴿ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ﴾ فهل كان لهم الحضور والمشاهدة عندما خلق الله تعالى الملائكة، حتى حكموا عليهم بهذا الحكم؟ مما يدل على قوة فجورهم، ومنه الكذب واختراعه بالافتراء، والقول على الله تعالى زوراً وبهتاناً، فهو افتراء وجرأة. وهو سؤال توبيخ، خاصة وأن إجابة هذا السؤال المتفق عليها حتى منهم، أنهم لم يشهدوا خلقهم. وبالتالي كيف حكموا عليهم بأنهم إناث؟ لتكون النتيجة: أنهم قوم يفترون الكذب الذي تطاولوا به على ربهم فيما خلق، فكيف بغير ربهم. وبالتالي فإنهم قوم لا أمان لهم بسبب استكبارهم وتعاليهم.

وهذا غاية التحليل والبيان لشأن المشركين وافترائهم على الله تعالى الكذب، ويقاس عليهم مَن ادَّعَى لله الولد. وبالتالي بلغ بيان الله تعالى الغاية في منهجية كشف الكذب والافتراء، وإقامة الحجة. مما يُعَلِّم المرء كيف يتدرج في إقامة الحجة، وكيف يبني حجته، لدحر الباطل، وما يفتري المفترون. ثم بعد ذلك يهددهم سبحانه وتعالى بما يستحقون من العذاب، فقال تعالى تهديداً لهم ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ سيتم تدوين شهادتهم الباطلة، من القول: بأن الملائكة إناثا، وذلك بكتابتها في صحائف أعمالهم، ثم ﴿ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ عنها يوم القيامة حتى يتم محاسبتهم بما يستحقون من العذاب. مما يبين أن أعمال الإنسان مكتوبة عليه أو له، جزاء لكل أحد بما كان منه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

ثم يخبر الله تعالى بالمزيد من افترائهم الكذب، فقال عَزَّ وجل عنهم ﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴾ فإن من افترائهم التي يفترونها على ربهم سبحانه وتعالى هو احتجاجهم على معصيتهم بالقدر وبمشيئة الله تعالى لهم بذلك ﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴾ فلو لم تكن هناك مشيئة من الله تعالى وموافقة منه على ذلك ﴿ مَا عَبَدۡنَٰهُم ﴾ أي: أن عبادتنا للملائكة والأصنام كانت بمشيئة الله تعالى وقدره. فاحتجوا على صحة عبادتهم للملائكة وغيرها من المعبودات كما يزعمون من أنها لو لم تكن بإرادة الله تعالى لَمَا كان منهم ذلك الشرك. بما يفيد لو أن الله تعالى ما شاء أن نعبد غيره لما كان ذلك. ولمنعنا وحال بيننا وبين عبادتها. وفي هذا إقرار منهم أنهم يعبدون من دون الله الملائكة والأصنام. فشهدوا بذلك على أنفسهم أنهم يعبدونها من دون الله تعالى.

فهم يقررون على أنفسهم بوقوع المخالفة من الشرك، ويستدلون بأنه لو لم يرد الله تعالى ذلك لما حصل منهم، وتغافلوا عن أن الله تعالى لا يريد ذلك، بدليل إرساله الرسل وخاتمتهم رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، الذي يعرفونه تمام المعرفة، ولا يُعِيبون عليه شيء أبداً، وجاءهم بالدلائل والبراهين والحجج على بطلان شركهم. وقد عَلِمَ الله تبارك وتعالى أن من عباده من يكون مؤمناً، ومنهم الكافر، وخلق الجنة للمؤمنين، وخلق النار للكافرين. ولو أراد أن يجبرهم على الإيمان لأجبرهم، ولكن جعل سبحانه وتعالى بحكمته وقدرته للإنس والجن مشيئة، لمن شاء أن يستقيم، وهذه المشيئة لا تخرج عن مشيئة الله تعالى، فلو شاء لألزمهم ومنعهم من ذلك، ولكن ليتحقق من كل أحد ما يسلكه ويختاره بنفسه لنفسه، ليستحق بالمقابل ما يستحقه من الجزاء، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

فاحتجاجهم واحتجاج من يماثلهم هو احتجاج باطل، لأن الله تعالى ألهم كل نفس فجورها وتقواها، كما في سورة الشمس، فقال تعالى ﴿ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ فعرفها وأفهمها ما يجعلها تدرك الخطأ من الصواب، والحق من الباطل، حتى تتحمل مسؤولية ما يكون منها. فإن مشيئة الإنسان واختياره مِنحَةٌ من الله تعالى لجنس الإنسان، حتى يستوفي كل إنسان ما اكتسب من الطاعة أو المعصية، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كما أوضح وبين ذلك سبحانه وتعالى في سورة التكوير، فقال تعالى ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ فجعل الله تبارك وتعالى بحكمته للإنسان مشيئة من الاختيار، وأوضح لهم طريق الخير وطريق الشر، وهذه المشيئة تحت مشيئة الله تعالى، فلا يعني ذلك أن الإنسان منفرد بها، بل إن الله سبحانه وتعالى هو الذي منحها للإنسان بمشيئته، ويمنعها بمشيئته. فيصحح سبحانه وتعالى مفاهيم عباده، ويُعَلِّمهم سبيل الحق والرشاد، حتى يعرفوا ما يجب عليهم، وما يكون منهم، وأن

ذلك لا يعني أنهم خارجين عن مشيئته عَزَّ وجل، فالجميع تحت قبضته جَلَّ في علاه. كما يصحح أفهام من حاد فهمه عن الصواب. وهذا من عظيم التدبير والحكمة والعدل من الله العزيز الحكيم.

ولذلك نفى الله تعالى صحة قولهم، فقال عَزَّ وجل ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ ليس لهم علم فيما يقولون به من الافتراء، فقولهم ليس مبني على علم، فنفى صحته سبحانه وتعالى بنفي تحقق العلم فيه منهم. فليس عندهم دليل على ذلك القول والادعاء، بما يفيد إن هو إلا افتراء محض ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ فإن قولهم محصور في البهتان من الكذب، لأن معنى ﴿يَخْرُصُونَ﴾ هو الظن والوهم بلا علم ولا حجة على الذي قالوه، وبالتالي فإنهم يتقولون على الله تعالى من غير حجة من الله عَزَّ وجل، فليس عندهم مستند، مما يدل على أن عبادة الله تعالى قائمة على العلم النقي، الذي جاء عنه تبارك وتعالى، أي: الذي جاءت به الرسل. فعبادة الله تعالى يجب أن تكون وفق ما شرع، وأن الاعتقاد وصحته مرهون بما أنزل الله تبارك وتعالى من الكتاب، وبينته السنة، وبما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم.

ومن دقائق البيان أن ورد تكبيتهم وإبطال قولهم بحصر وقصر قولهم في الخرص ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ فليس قولهم إلا الخرص والتوهم. الذي هو الوهم الذي ليس فيه حجة. وقد بدأ الله تعالى مطلع البيان بنون التوكيد ﴿إِنْ﴾ التي تؤكد صفة الخرص فيما قالوه من الكذب، وتم الحصر والقصر بحرف ﴿إِلَّا﴾ الذي استبعد كل احتمال، وحصره وقصره في الخرص فقط، الذي هو الوهم الذي ليس فيه حجة. مما يبين أن من الخطأ الفاحش أن يبني المرء رأيه وفكره وقراره في القول والعمل على الوهم والتكهن.

فقد بنوا سيئاتهم على الافتراء بأن الله تعالى أذن لهم فيما هم فيه من الباطل، وأن الله تعالى أراد ذلك. والحقيقة أن الله تعالى لا يريد لعباده الكفر، ولا المعاصي، ولذلك أنزل الكتب، وأرسل الرسل، وكل نفس بما كسبة رهينة، ولذلك يكون في الناس العاصي بإرادته، والمطيع بإرادته، وفق ما أعطاهم الله تعالى من المشيئة.

فتنزه الله تعالى من أن يريد لعباده المعصية، ثم يعاقبهم عليها، كما قال تعالى في سورة: آل عمران ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾ وتكررت في سورة الأنفال، وفي سورة الحج، وكما قال تعالى في سورة: فصلت ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ مما يبين أن الله تعالى لا يظلم عباده أبداً بغير ما اكتسبوا، بل يحب الطاعة والمطيع، ولذلك أنزل الكتب، وأرسل المرسلين، بل ويهدي من أناب إليه وتاب، بقبوله بعد تركه للمعصية، مهما كانت تلك المعصية في عظمتها. والحمد لله رب العالمين. اللهم اهدنا وأصلحنا، وألهمنا الصواب.

ثم يستمر إنكار الله تعالى على المشركين، بالمزيد من الحجج، على القائلين: لو شاء الله تعالى ما عبدنا من دونه من شيء، وأن الملائكة إناثا. فيقول تبارك وتعالى ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ فهل أعطيناهم من لدنا كتاباً يثبت لهم صحة دعواهم، فهم مستمسكون به، ويحتجون به على ما جاء به رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم؟ ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ سؤال استنكار، وتقريري في نفس الوقت. فهو استنكار لعدم وجود الدليل على ما يَدَّعُون مما هم فيه من الشرك، ومن القول بأن الملائكة بنات الله تعالى، فإن لم يكن حضروا خلق الملائكة، فهل عندهم كتاب من ربهم بهذا الذي يدعون؟

وهو سؤال تقريري، يقرر به سبحانه وتعالى أن ليس عندهم دليل من كتاب مُنَزَّل من عند الله تعالى يستدلون به على الشرك، وأنه يدعوهم إليه، ويخبرهم بأن الملائكة إناثاً. بما يفيد أنه اختراع محض من عند أنفسهم، نتيجة أنهم يتخرصون، ويظنون بما يخمنون، ويجترؤون زوراً وبهتانا على ربهم سبحانه وتعالى

وقد بدأ البيان بحرف ﴿ أَمْ ﴾ الذي أفاد الانتقال إلى لمزيد من الإنكار والنفي لكل قول لهم، من أجل تعرية دعواهم من كل برهان ودليل ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ ﴾ هل زودناهم ومنحناهم ﴿ كِتَـٰبًا ﴾ أنزلناه من لدنا لهم ﴿ مِّن قَبْلِهِۦ ﴾ من قبل نزول القرآن العظيم ﴿ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ فهم بهذا الكتاب متمسكون بما فيه؟ بما يعني نفي إنزال أي كتاب عليهم قبل هذا القرآن الكريم، فلم يكن لكم من كتاب من قبله.

وقد أورد الله تعالى كلمة ﴿ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ بصيغة المبالغة، لإفادة شدة حرصهم على الباطل الذي هم فيه يهيمون. فإن من حرصهم على الباطل أنهم متشددون بالتمسك بما هم عليه من الباطل، عن مطاوعة الرسول صلى الله عليه وسلم واتباعه. بما يفيد التهكم بشدتهم فيما هم عليه من الشرك، وتمسكهم بالعناد، وكأن عندهم عليه من الله تعالى برهان. فاجتمع فيهم البهتان، والكذب، والتزوير، والتعالي، ورد الحق. فجمعوا كل ذميم في كفرهم.

ثم يخبر الله تعالى بجوابهم الذي سجل اعترافهم بأنه لا حجة ولا دليل عندهم غير أنهم تابعوا من سبقهم في الاعتقاد وعموم الشرك ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ فاعترفوا بأنه لا حجة يستندون إليها غير تقليد من سبقهم ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾ أي: وجدنا من سبق من الآباء على دين ومذهب وطريقة ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ ونحن على ما ورثناه عنهم من المذهب والطريقة والدين مقتدون بهم، فنهتدي بما كانوا عليه من النهج. مما يدل على قوة ضلالهم، وقوة

تمسكهم بما ليس لهم عليه دليل غير متابعة وتقليد من سبقهم. وهذا يوضح خطورة المتابعة من غير تعقل وتفكر في ذات الأمر من كل وجه. كما يبين أن منهج الإسلام قائم على الحق، الذي يعتمد على الدليل والبرهان، ويزيل الفكر المنحرف بالأدلة والحجج المقنعة، والمحاجة التي تكشف الباطل وتعريه، ليظهر ويتحقق به الحق على نور من الأدلة والبراهين. بل ويعلم المؤمنين منهجية الحجة والدليل والبرهان في جميع شؤونهم. وألا يكون المؤمن إمعة، إن أحسن الناس احسن، وإن أساؤوا أساء مثلهم.

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

وبعد أن أوضح وكشف تبارك وتعالى باطل أهل الشرك، يبين ويوضح جَلَّ جلاله لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين معه المشابهة بين قول المشركين له عليه الصلاة والسلام وبين قول الأقوام السابقة لرسلهم، فقال تبارك وتعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴾ وبمثل ما تواجه من قومك من الإنكار والكفر، فإنه كذلك ما بعثنا من قبلك لأهل قرية من نذير من المرسلين، لينذروهم من بأس الله تعالى وعذابه لمن كفر، إلا وقد احتجوا بآثار من سبقهم في الضلال. وفي هذا البيان معالجة لما كان يواجه صلى الله عليه وسلم من قومه المعاندين. فيخبر الله تعالى أن حال المرسلين من قبل كان كذلك، بمثل ما هو عليه حال قومك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ ﴾ وبمثل ما تواجه من قومك من الإنكار والكفر، فإنه كذلك ما بعثنا لأهل قرية من نذير من المرسلين، لينذروهم من بأس الله تعالى وعذابه لمن كفر، ويبشرونهم بأن من أطاع له الجنة ﴿ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ ﴾ إلا وتزعم أهل الترف من أهل السعة والرغد، والغنى والوجاهة والرئاسة، وقادة الشر من الجبابرة، الذين استكبروا على غيرهم بما عندهم من الخير، إلا وتزعموا مناكفة المرسلين، وقالوا لرسلهم ﴿ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴾ إنا بما أُرسلتُم به أيها المرسلون مكذبون ومنكرون لجميع ما جئتم به، وبالتالي أصبحوا كافرين، أي ناكرين مكذبين، فدخلوا في فئة الكافرين الذين مأواهم النار وبئس المصير. فإنهم اعتمدوا على التوارث في الدين، بناء على ما وجدوا ممن سبق من الآباء

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ ونحن على ما ورثناه عنهم من المذهب والطريقة والدين مقتدون بهم، فنهتدي بما كانوا عليه من النهج. مما يدل على أن المتابعة من غير تعقل وتفكر في ذات الأمر، فإنها تتجه بأصحابها إلى سوء المصير، وهذا ينطبق في كل أمر وشأن من أمور الدنيا. كما يبين هذا أن منهج الإسلام قائم على الحق، الذي يعتمد على الدليل والبرهان، وأنه يعالج الانحراف الفكري بالأدلة المقنعة، والمحاجة التي تكشف الباطل، ويحق بها الحق، على نور من الدليل والبرهان.

ومن دقائق البيان أن الآية الكريمة أفادت حصر زعامة المقاومة والتكذيب والكفر في المترفين الذين يتبعهم الغاوون ﴿إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾ فأغنت مفاهيمها ودلالاتها عن الكثير من التفصيل، ومن ذلك أن المترفين يريدون بقاء زعامتهم، والمحافظة عليها، واستضعاف الضعفاء، ليكونوا في خدمتهم، وعلى سيرتهم ومنهجهم. وأن هؤلاء المترفين هم أول من يتزعم مواجهة الحق ورده.

وفي هذا الإخبار من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ما يشد أزره، ويعينه على الصبر، فإن حال الناس مع أنبيائهم هو الحال الذي يواجهك به قومك أيها النبي صلى الله عليه وسلم. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: هذه تسلية للرسول الله صلى الله مما مُني به من قومه، من التكذيب والكفر بما جاء به[1] مما يبين عناية الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم، كما يعطي هذا النهج الرباني دلالة على أهمية تسلية المؤمن بالصبر تجاه ما يجده في حياته، وذلك بتذكيره بما يخفف عنه مما هو فيه، كتذكيره بغيره الذين عافاهم الله تعالى مما كانوا فيه، ليتقوى قلبه بالصبر على ما يواجه من المحن والابتلاء.

ثم تستمر المحاجة معهم، فيخبر الله تعالى بما قاله رسوله صلى الله عليه وسلم لقومه، فيقول عَزَّ وجل ﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم لهم بما أمره الله تعالى به ﴿أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡ﴾ أتتبعون نهج آبائكم حتى ولو أن الذي جئتكم به من الدين من ربكم هو خير في الهداية مما ورثتموه عن آبائكم وأسلافكم؟ سؤال يتقرر به حقيقتهم، فإن كان هدفهم الحق والصواب، ستكون الإجابة منهم بالموافقة على متابعته صلى الله عليه وسلم، وإن كان هدفهم التعالي بالتقليد لمن سبقهم، والعناد للحق الواضح فستكون الإجابة منهم: باختيارهم متابعة الآباء، وما كانوا عليه من الضلال.

وقد ورد السؤال هنا بأسلوب المفاضلة والتفضيل ﴿بِأَهۡدَىٰ﴾ من باب التلطف الذي يستدعيهم للتأمل والتدبر، وإلا فلم يكونوا على شيء من الهدى. مما يبين أن الهدف هو ترغيبهم في الدحول في الإسلام،

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٥٨١/٣)

وليس جرهم للاستعداء، كما يفيد أهمية الحكمة في الدعوة. وهنا أجابوا صراحة بما قاله الله تعالى عنهم ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ فبالرغم من لطف المحاجة إلا أنهم أعلنوا كفرهم بالحق الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من ربه عَزَّ وجل. بما يفيد أن الحق ليس هو هدفهم، بل الانتصار لكبريائهم وعنادهم. مما يُظهر خطورة الكبر على قرارات الإنسان إلى درجة ما يخص الدين، الذي لا يمكن استدراكه واستعاضته إذا فات وقته بالانقطاع عن الدنيا والالتحاق بالآخرة.

ومن دقائق البيان أنهم أوردوا الجمع في الرد ﴿ بِمَآ أُرۡسِلۡتُم ﴾ ليفيد أنت ومن أخبرت من المرسلين من قبلك عليهم الصلاة والسلام، والذي أُرْسِلُوا به هو توحيد الله تعالى ونبذ الشرك. فَعَيَّنُوا بذلك مضمون الرسالة ﴿ بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ ﴾ فلا نقر بها ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ ناكرون لها، ومكذبوكم لكم، وبما جئتم به. ليفيد مبالغتهم في التكذيب، مهما كان مع الرسول من الحق صلى الله عليه وسلم. وذلك لإظهار أن غايتهم من التكذيب والرد هو ابتغاء العناد، لما في نفوس كبرائهم من الاستعلاء، وابتغاء ما هم فيه من الرئاسة، واستعباد الناس.

ثم لما كان منهم ذلك القول: بأنهم كافرون بما جاء عن الله تعالى، يخبر الله تعالى بأن ذلك حال من كان قبلهم من الأمم ﴿ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ فقد انتقمنا ممن كذب المرسلين، فإن الله تعالى قد انتقم منهم بإهلاكهم بما يستحقون من العذاب. فتأمل كيف كانت عاقبتهم. ليفيد الوعيد لقومك من أن يصيبهم من ربهم ما أصاب به من سبقهم من الأمم المكذبة السابقة. وتفيد دلالة الانتقام في قوله عَزَّ وجل ﴿ فَٱنتَقَمۡنَا ﴾ قوة العقوبة والجزاء الرادع الشديد على مخالفتهم العظيمة والجسيمة، ولذلك سَمَّى الله تعالى العقوبة بالانتقام، وسَمَّى أولئك المعاقَبين بالمكذبين لتكذيبهم رُسُلهم، وما معهم من البينات.

فقد سماهم الله تعالى بما هم عليه من الوصف ﴿ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ والمكذب: هو الذي ينكر ما عرف، وما استقر في نفسه، وبالتالي اعترف وارتكب ما جنى به على نفسه من العقوبة، لخروجه عن الحق، لأنه قطع الأصل بالنقيض، وهو التكذيب، فكفروا، فنقضوا وضادوا الأدلة والحجج، والحق والفطرة. فأصاب الله تعالى هؤلاء المترفعين والمتعالين على أنبياء الله تعالى بأشد العذاب الشديد، الذي أذلهم وأهانهم. مما يبين أن الله تعالى بالمرصاد لمن كابر بنفسه على الحق، واستعلى عليه، وترفع عنه. مما يُوجب الحذر من انتقامه عَزَّ وجل، وذلك بطاعته، والتوبة عند وقوع الزلل والخطأ.

ثم يوجه الله تعالى الإنذار للمشركين من خلال توجيه الرسول صلى الله علي وسلم بالتأمل ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ فتأمل كيف هي نهاية الأمم التي كذبت المرسلين، فقد نالها العذاب الشديد. فعلى الجاحدين الاعتبار بذلك. فإنها موعظة من رب العالمين للناس أجمعين، بما كشفه لهم من الحقائق، وفي بيان عظيم الأثر، وكأن الْمُخَاطَب ينظر ببصره وبصيرته إلى مآل الكافرين. لتكون موعظة موجزة بالحقائق لحال من كفر. فنسأل الله تعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة.

وقد حث تبارك وتعالى على التأمل والتدبر في شأنهم ومصيرهم ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ فتأمل أيها الْمُخَاطَب كيف سهولة أخذهم بالهلاك، كونهم كافرين منكرين للحق الظاهر المبين. بما يبين أن عاقبة الظالمين هي الهلاك، وأنهم مُحتقرون عند ربهم عَزَّ وجل، فلا قيمة ولا شأن ولا وزن لهم. وكلمة ﴿فَٱنظُرۡ ﴾ تبين أهمية التأمل والتدبر، والوقوف على ما يحقق الإيمان. وهي تفيد نظر البصر بالمشاهدة والمعاينة، وكذلك نظر البصيرة بالتأمل والتفكر والتدبر. مما يبين فضل الله تعالى في تمكين الإنسان من الحواس التي توصله إلى الحق، ومعرفته، وإدراكه إدراكاً حسياً وقلبياً بعد توفيق الله تعالى. بل جاء التوجيه بالنظر مقترناً بأداة الاستفهام﴿كَيۡفَ ﴾ فقال تعالى ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ ﴾ والتي أفادت التنبيه، وتوجيه الذهن للاعتبار، والتأمل بتقليب الفكر والتفكر في حقارة الظالمين بكفرهم عند الله تعالى، وأن زينة الدنيا قد أغرتهم، وأخذت بهم إلى الاستعلاء في الأرض، حتى وصل بهم الاستعلاء على المرسلين لهم من الله تعالى، والاستعلاء على ربهم عَزَّ وجل. ومنهم فرعون الذي نفى أن يكون هناك رب غيره، فادَّعَى الألوهية والربوبية. بما يفيد التدرج في التعالي، ومصادرة الحق وعدم الاعتراف به. وخطورة التقليد، والتتابع في الباطل، والذي يجر بعضه بعضاً، حتى يصل به العبد إلى أدنى درجات التفكير والانحطاط.

ومن الفوائد الأسلوبية في قوله تعالى ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ ﴾ أنها تَلْفِت الانتباه إلى تقليب البصر والتأمل، وتقليب الفكر في الشيء، لتنكشف الحقائق له، وليكتشف ما غاب عنه من الحق، وليبصر الحقائق المذهلة، التي تبين وتكشف للناظر مسارات الحق الواضحة الساطعة البينة، وتوضح له ما في الحق من الْحُسْن والخير. كما يدل على نعمة نظر البصر والبصيرة، وأنها نعمة عظيمة، إذ يتفقه بها الإنسان في المنافع والمصالح، وفي الخطأ والصواب، وأن التفكير والتأمل وسيلة من وسائل المعرفة في اكتشاف الحقائق والصواب من الخطأ، والحق من الباطل.

ثم ينتقل السياق إلى شأن رسول الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام مع قومه، ليكون ذلك مثالاً وأسوة للرسول صلى الله عليه وسلم، ويكون لقومه تحذيراً لهم من كفرهم وتكذيبهم بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

فقال عَزَّ وجل ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ واذكر أيها الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأبيه ولقومه معلناً براءته مما كانوا يعبدون من الأصنام ﴿ إِنَّنِى بَرَآءٌ ﴾ والتي تفيد المبالغة في الابتعاد والنفي، فتبرأ نبي الله ورسوله إبراهيم عليه الصلاة والسلام مما كان عليه أبوه وقومه من الشرك، بعبادتهم للأصنام، واستثنى من ذلك عبادة الله تعالى ﴿ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴾ متبرئ من كل شيء تعبدونه إلا الله ﴿ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ أي: الذي خلقني، وفي هذا تذكير لهم بحقيقة الإنشاء، فإن الذي خلقني وخلقكم هو المستحق للعبادة، فاستدل بالدليل والحجة التي لا ينكرها إلا مكابر للحق، ثم وجههم إلى أنه سبحانه وتعالى هو الذي يهدي من أناب ورجع إليه ﴿ فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴾ فإنه سيوفقني إلى ما يحبه ويرضاه. فكان حاله عليه الصلاة والسلام ليس كمن قال: إنما نتبع ما وجدنا عليه آباءنا، بل رفض الذي عليه والده، وقومه، فأنكر على نفسه أن يكون مثلهم، لمجرد تقليد من سبقهم. ليعطي الدليل القاطع بأن الإنسان هو الذي يختار، وأن العاقل يفكر بعقله في الخطأ من الصواب. ثم ركن إلى ربه في أن يهديه لما يحبه ويرضاه من الحق والخير والتوفيق والرشاد.

وهنا جعل هذه المقالة الفاعلة التي اتخذها بالبراءة من الشرك باقية الأثر فيمن بعده ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ فجعل الكلمة التي هي ﴿ ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴾ قاعدة من الإخلاص لله تعالى، وما تضمنته من الاستدلال بأن الخالق هو الذي يكون له الإخلاص في العبادة وحده لا شريك له. ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ ﴾ أي: متعاقبة البقاء في ذريته من بعده. كما ورد في سورة البقرة ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ فكانت كذلك بفضل الله تعالى وكرمه وتوفيقه.

ثم أورد علة وسبب ذلك ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ لعلهم إلى هذه الكلمة من الإخلاص لله تعالى يرجعون إليها، فتكون هي الأصل التي يعودون إليها، فيوحدون ربهم الخالق الذي أنشأهم وأنشأ الكون كله سبحانه وتعالى. فينشرونها ويبثونها في الناس. وهي تعني التوحيد بإفراد الله تعالى في ملكه وعبادته وربوبيته وألوهيته، والمتمثلة في قول: لا إله إلا الله. فهو الذي يستحق العبادة فقط. فلا يستحقها غيره جَلَّ جلاله.

﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

يخبر الله سبحانه وتعالى عن امتنانه على عباده بعدم معاجلة المشركين على شركهم بالعقوبة، بل تركهم حتى جاءهم الحق بالرسالة والقرآن المبين. فقال عزَّ وجل ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ بل لم نعاجلهم على ما هم فيه من الشرك بربهم ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ بما كانوا فيه من نعيم وخير، وكذلك ﴿ وَءَابَآءَهُمْ ﴾ أي: ممن سبقوهم من قبلهم ﴿ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ وهو القرآن العظيم ﴿ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ وهو محمد صلى الله عليه وسلم. ووصفه بالمبين ﴿ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ وذلك لِمَا معه من الحجج والبراهين التي جعلت نبوته ورسالته ظاهرة، واضحة بائنة الصدق، لا غموض ولا شك فيها.

ومع هذا الحق المبين الذي جاءهم به، فإنهم نعتوه ووصفوه بأشنع الأوصاف، فقال تعالى عنهم ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ فلما جاءهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالقرآن من الله تعالى، الذي هو الحق ﴿ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ ﴾ وصفوا القرآن العظيم بالسحر، وأعلنوا كفرهم، فقالوا ﴿ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ أي: منكرون ومكذبون به، وجاحدون له، فكابروا وعاندوا، حسداً للرسول صلى الله عليه وسلم، وعناداً واستكباراً.

ثم أظهروا حسدهم وكبرياءهم بما اقترحوا، من أن ينزل الوحي والقرآن على من يرونه في أعينهم وتقييمهم من الكبراء والوجهاء الذين يستحقون أن تكون الرسالة فيهم حسب زعمهم. فقال عزَّ وجل عنهم ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ فقالوا معترضين على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير ذلك: هلا كان إنزال هذا القرآن على رجل عظيم، كبير في أعينهم من القريتين؟ يعنون مكة والطائف، قاله ابن عباس

رضي الله عنهما، وعكرمة والسدي، وقتادة وابن زيد رحمهم الله تعالى[١] مما يدل على أن اعتراضهم من باب الحسد، والاستعلاء، وكأن اصطفاء الله تعالى لرسوله يكون بناء على ما يرون ويقترحون. فقدموا حسدهم وكبرياءهم على فوزهم ونجاتهم في الدنيا والآخرة.

ثم يرد الله تعالى على اعتراضهم، فيقول عَزَّ وجل ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّاۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ فبدأ الرد عليهم بسؤال استنكار ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ هل رحمة ربك خاضعة لقسمتهم؟ فيجعلون تفضله لمن شاءوا، وفضله لمن يتخيرون. بما يفيد النفي، فإن رحمة الله تعالى ليست خاضعة لهم، ولا لغيرهم. بل له سبحانه وتعالى، فهو أعلم حيث يجعل رسالته، فهو أدرى بمن يصطفي ويختار من عباده لرسالته. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: ليس الأمر مردود إليهم، بل إلى الله عَزَّ وجل، والله أعلم حيث يجعل رسالته[٢] وقد سَمَّى الله تعالى الرسالة والرسول والقرآن ﴿رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ لأن الرسالة رحمة، والقرآن رحمة، والرسول صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، إذ بها يُنقذ اللهُ تعالى الناس من ظلام الجهل والكفر إلى نور الإسلام، ومن النار إلى الجنة، فرسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة بما كلفه به ربه سبحانه وتعالى من الرسالة، وبما منحه من مكارم الأخلاق، وعظيم الصفات، والقرآن رحمة بما احتواه من الأحكام والتشريع، والحلال والحرام، والمواعظ والعبر، والعبادات، وجميع شريعة الله تعالى رحمة للعالمين. مما يبين ويفيد أن الاستعلاء قد يجعل المرء ينظر لنفسه فوق حقيقتها، فيذهب به إلى التهلكة.

ثم يخبر الله تبارك وتعالى بأن الأمر إليه، بما فاوت بين عباده فيما أعطاهم ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ نحن قسمنا ووزعنا بينهم أرزاقهم في الحياة الدنيا، وليس الأمر لهم، ولا لأحد من خلقه، فالحكم في توزيع معيشة العباد راجع لحكمته جَلَّ في علاه. فَإن مَن قسم بين العباد معيشتهم في الحياة الدنيا فله كذلك الاصطفاء من عباده من يشاء للرسالة والنبوة. مما يفيد أن جميع الأرزاق قسمة من الله تعالى، وفق حكمته، ودرايته بحقائق العباد فرداً فرداً، مما يستوجب بناء على ما قرره الله تبارك وتعالى انتفاء التحاسد بين العباد، وألا يتعالى أحد على أحد بما فضل الله تعالى به بعظهم على بعض في العطاء، فإن كل رزق هو بفضله سبحانه وتعالى. وأن المانح هو الله تعالى، وليس الإنسان هو المانح لنفسه، وليس لأحد أن يمنح غيره إلا بفضل الله تعالى وإرادته. وما على العباد إلا الأخذ بالأسباب في طلب ما يريدون. وأن لا يعترضوا فيما بينهم

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٣٧/٤)

(٢) المرجع السابق (١٣٧/٤)

على قسمة الله تعالى. وهذا يستوعب كل عطاء، من المال، والذرية، والجاه، والمناصب، والملك، والوجاهة، فلا ينتقص أحد من أحد، ولا يزدري أحد لأحد فيما أعطاه الله تعالى، بالاحتقار واللوم ونحوه، أو يرى أن هذا أحق بهذا في أمر أو في شيء من الأشياء، بل لله الأمر جميعاً. فما على المؤمن إلا الدعاء، وسؤال الله تعالى ما يريد، ولا يعترض على عطاء الله تعالى لأي نوع من أنواع الرزق.

وطالما أن القسمة لله تعالى فكيف لهؤلاء أن يعترضوا على نبوة من اصطفاه سبحانه وتعالى لرسالته، فهو اعتراض في غير محله. لأن الشأن شأنه سبحانه وتعالى، والأمر أمره عَزَّ وجل. كما إن الله تعالى لم يجعل الناس في درجة واحدة، بل جعل التفاوت بينهم حقيقة ظاهرة، فقال تبارك وتعالى ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾ فهو الذي فاوت بين العباد في جميع أنواع درجات التفاوت، وهو الذي يرفع درجات من يشاء من عباده: سواء في العلم والفهم والتحصيل، أو في المال والجاه والأولاد والأملاك، والمكاسب والمحامد، وغير ذلك. فهو الذي يضع كل شيء موضعه بحكمته وعلمه. فهم في درجات متفاوتة. وقد أسند الرفع له تبارك وتعالى ﴿ وَرَفَعْنَا ﴾ أي: فلستم أنتم بل الله تعالى الذي يرفع من يشاء بحكمته. فهو الذي جعل التفاضل بينكم سنة وقضاء، فرفع بعضكم فوق بعض، وكلمة ﴿ دَرَجَٰتٍ ﴾ تفيد الجمع، ومفردها: درجة، مما يفيد كثرتها، واتساعها، وتعددها وتفاوتها، وتنوعها: في المال، وفي العلم، وفي الأولاد، وفي الجاه، والقوة، والصحة، والعقل، والفكر، والفهم، والحفظ، وغيرها مما لا يحصيه الإنسان من التفاوت في الدرجات والأنواع، فمن الذي جعل هذا التفاوت؟ إنه الله سبحانه وتعالى الذي قضى أن يكون الرفع والخفض منه جَلَّ جلاله، حيث نسبه إليه سبحانه وتعالى ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾ فهو الذي فاوت بين العباد بحكمته، ومعرفته بحقائق العباد فرداً فرداً.

ثم ما الحكمة من هذا التفاوت؟ حتى يحصل بينهم التكامل ﴿ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ فالحكمة هي لتحقيق الانتفاع بين العباد بهذا التفاوت، فهناك الرئيس، وهناك المرؤوس، وهناك العامل، وهناك رب العمل، وهناك المعطي، وهناك الآخذ. فيسخر بعضهم لبعض في الأعمال، وقضاء حاجات بعضهم البعض. فما أحوج الغني للعامل، وما أحوج العامل للغني، حتى يستخدمه في مهنة، وفي قضاء حاجاته بالأجر. فالغني محتاج للفقير، والفقير محتاج للغني، فلا أحد منهما مستغني عن الآخر، حتى في الزكاة، فالغني في حاجة إلى الفقير ليتحقق به أداء عبادة الزكاة، والفقير محتاج للغني في أن يعطيه من الزكاة. فمعيشة الناس وأعمالهم، وقضاء حوائجهم تنقضي بهذا التفاوت. وهنا تظهر بعض حكمة الله تعالى في هذا التفاوت، فهو نعمة من الله تعالى على البشرية كلها.

ويدخل في ذلك الابتلاء والاختبار للناس، فهو الذي جعل هذا التفاوت، ليظهر الصابر والشاكر، والقانط، والمتواضع والمتكبر، فيجازي كل واحد بما له وما عليه، وكذلك ليظهر بهذا الاختلاف التعاون. فهذا يحتاجك، وهذا تحتاجه، وهذا أقوى وهذا أضعف، وهذا يأخذ وهذا يعطي، فيتبين بالتعامل المطيع لله تعالى من العاصي، والملتزم بضوابط شريعة ربه، والمفرط فيها، ويظهر الذي أغراه ما هو فيه من نعمة، ومن لم يغتر بما أنعم الله تعالى به عليه. فإن الذي دَبَّر هذا بحكمته هو الله تعالى. فكل شيء في الكون يسير بحكمة الحكيم العليم سبحانه وتعالى.

ويعتبر قوله تعالى ﴿ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ ﴾ معالجة لكل نفس تتأثر بما عند غيرها من الخير، وتطمع فيه حسداً أو مماثلة، بأن يعالجها بقوله تعالى ﴿ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ ﴾ وكلما وجد الإنسان في نفسه شيء مما لا يحسن به قال لنفسه ﴿ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ ﴾ وإن رأى غيره يحسد غيره، قال له ﴿ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ ﴾ وإن رأى من يترفع على غيره بالنعمة ذَكَّره بقوله تعالى ﴿ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ ﴾ فهي علاج لآفات وأمراض التنافس غير الشريف.

ثم يخبر تبارك وتعالى بما يحفز به العباد على الإحسان فيما هم متفاوتون فيه، فَيُظهر ويبين عَزَّ وجل أن ما رحمكم به من الرسالة، خير مما تجمعونه من المال، وخير مما ترون في الرفعة من التفاوت ومن مظاهر الاختلاف في المكانة والقدر. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾ فإن رسالة الله تعالى التي بلغتكم أفضل وخير من جميع ما تجمعون من الدنيا. أي: أن أفضل ما تجمعون من الدنيا هي طاعة ربكم التي جاء بها لكم الرسول صلى الله عليه وسلم. فرحمة الله تعالى التي هي كامل الرسالة، المتضمنة للقرآن، وإرسال الرسول محمد صلى الله عليه وسلم أعظم في المكانة والمنزلة مما تجمعون من الأموال ومن زينة الحياة الدنيا التي تتفاخرون بها، وتجعلونها المقياس في الرفعة. فإن رفعة النبوة التي منحناها ربكم لمحمد صلى الله عليه وسلم خير مما تجمعون، وبما يفيد تبعاً لذلك: فإن ما جاءكم به رسول ربكم محمد صلى الله عليه وسلم خير مما تجمعون وتنشغلون به. فعليكم أن تُقابلوه وتَتَلَقَّونه بالقبول، فهو خير لكم من الأموال التي تجمعون. لأن ما يجمعه الإنسان سيتركه، وأما طاعة الله تعالى فإنها تسير معه، وتسير به إلى النجاة من النار، والفوز بالجنة. فهو تحفيز بالخيرية ﴿ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾ التي تستدفع العاقل لها. مما يبين أن فهم الدين وفهم كتاب الله تعالى يحقق لعباده المكاسب العظيمة في الدنيا وفي الآخرة.

ومن سعة دلالة ﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ أنها تجمع دلالة رحمة الله تعالى بجميع خلقه. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: رحمة الله بخلقه خير لهم مما بأيديهم من الأموال، ومتاع الحياة الدنيا[١] وتجمع كذلك خيرية: ما أعده الله تعالى لعباده الصالحين في الآخرة[٢] وقال القرطبي رحمه الله تعالى: أي: أفضل مما يجمعون من الدنيا، ثم قيل: النبوة، وقيل الجنة، وقيل تمام الفرائض[٣] فهي خير مما يجمعون من الدنيا. وبذلك هي تعني ما جاء من القرن الكريم، وعموم شريعة ربكم، والنبوة، لأنها المراد بالرحمة المتقدمة في قوله تعالى ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ فأفضل ما يجمعون من الدنيا هي طاعة ربهم التي جاءهم بها الرسول صلى الله عليه وسلم. مما يفيد أن عظمة نعمة دين الله تعالى أعظم نعمة في الدنيا، إذ بها يتحقق الخير والفلاح والفوز في الدنيا والآخرة.

وفي قوله تعالى ﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ دفع للنفس نحو الاتجاه لطاعة الله تعالى، وأن لا يغتر المسلم بزخارف الدنيا، فما عند الله تعالى خير مما يجمع الجامعون للدنيا. فكلما اتجهت النفس لتضييع شيء من الطاعة، صحح مسارها بقوله تعالى ﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ وكلما انشغلت النفس بالدنيا عن الطاعة عالج شأنه، بأن يتذكر قوله عَزَّ وجل ﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ وإن رأى مشغولاً بالدنيا عن الطاعة ذَكَّرهُ بقوله تعالى ﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ فهي علاج لكل ما يُشغل المؤمن عن طاعة الله تعالى، والفوز بالآخرة.

﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٣٧/٤)
(٢) الشوكاني، فتح القدير (٥٥٤/٤)
(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥٦/١٦)

جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

يخبر الله تعالى عن الدنيا مقارنة بالآخرة، بأنه لولا لطفه تبارك وتعالى، بأن لا يكون الناس أمة واحدة مجتمعة على الكفر، وإيثار الدنيا على الآخرة لوسَّع الدنيا على الذين كفروا سعة عظيمة، من باب هَوان الدنيا عنده سبحانه وتعالى. فقال تبارك وتعالى ﴿ وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ﴾ فمن مزيد تهوين الدنيا عند الله تعالى، أنه لولا كراهته عَزَّ وجل من أن يكون الناس على ملة واحدة، وهي ملة الكفر، لأغدق على من آثر الحياة الدنيا رغد العيش ﴿ وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ أي: على ملة الكفر ﴿لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ لجعل من خصائص أهل الكفر المزيد من المتاع والإمتاع، وذلك لِهَوان الدنيا عند الله تعالى، فلولا فتنة ذلك على الناس بما يشاهدونه من رغد العيش وسعته، ورفاهيته على الذين آثروا الحياة الدنيا على الآخرة، لجعلنا بمشيئتنا وقدرتنا لمن يكفر بالرحمن أنواعاً من زينة الدنيا التي لا يتخيلها الإنسان. بأن نجعل ﴿لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ ﴾ فيمنحهم من العطاء والقدرة والتمكين على صنع ذلك، وكذلك ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ﴾ وكذلك نجعل لبيوتهم ما يصعدون به، وهي المعارج، كالدرج والسلالم، فيصعدون بها إلى أعلى حتى ﴿يَظۡهَرُونَ ﴾ على مساكنهم. فيظهرون بتلك المعارج إلى ما يعلوا من المساكن. فكلمة ﴿ وَمَعَارِجَ ﴾ تدل على وسيلة العلو. والظهور هو: البروز. فنقول: ظَهَرْتُ على البيت، أي: علوت على سطحه، وظهرت على كذا علوت عليه. قال الحسن: المعنى: لولا أن يكفر الناس جميعاً بسبب ميلهم إلى الدنيا، وتركهم الآخرة، لأعطيناهم في الدنيا ما وصفناه[١] ولكن لرحمة الله تعالى بالناس لم يجعل ذلك. وهنا لم يحدد تبارك وتعالى نوع المعارج، لتستوعب كل وسيلة يعلو بها الإنسان إلى الطوابق العليا من الدور. بل ولتستوعب ما كان موجوداً حين نزول القرآن الكريم من السلالم والدرج، وتستوعب كذلك مستجدات العصور المتتالية. وهذا من الإعجاز في البيان. وهذا البيان من الله تعالى دليل على رحمته جَلَّ جلاله بالعباد، وكذلك هوان الدنيا وحقارتها عند الله تعالى، بما يفيد أن الآخرة هي الجديرة بالعطاء لمن أطاع، لدوامها، وعظيم ما فيها من النعيم، الذي لا يخطر ببال أحد. وفيه درأ المفاسد أولى من جلب المنافع والرفاهية الزائلة.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦/٥٦-٥٧)

فمنع الله ذلك تبارك وتعالى برحمته ولطفه وحكمته، حتى لا يعتقد الناس أن إعطائنا الرفاهية دليل على محبتنا لمن أمددناه بالنعمة، وذلك لهوان الدنيا على الله تعالى، فإعطاء ذلك من باب العقوبة بما يغريهم من متاع الدنيا. فكان ذلك هو لسد الذرائع، مما يبين عظيم حكمة الله تعالى، ولطفه في تدبيره. مما يفيد أن العطاء المتفاوت من الله تعالى هو لحكمته العظيمة سبحانه وتعالى، وليس دليل جازم على الرضا، كما أن القلة ليست دليل جازم على عدم الرضا. ومن بديع البيان أن تصدرت الآية الكريم بحرف الامتناع ﴿ وَلَوۡلَآ ﴾ التي أفادت إظهار سبب الامتناع بأنها رحمة الله تعالى بالناس، حتى لا يغتروا بالكفر، ويتركوا طاعة الله تعالى.

ويضيف سبحانه وتعالى المزيد من العطاء لولا فتنة الناس بالكفر، فقال عَزَّ وجل ﴿وَلِبُيُوتِهِمۡ أَبۡوَٰبٗا وَسُرُرًا عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴾ وجعلنا أيضاً لبيوتهم أبواباً وسرراً متميزة عن غيرهم، بما يكون من القوة والجودة والجمال، وراحة الأسرة.

ووصف سبحانه وتعالى حالهم على الأسرة بالاتكاء ﴿يَتَّكِـُٔونَ ﴾ لتعطي دلالة المبالغة في الراحة، لأن الاتكاء لا يكون من التعب، ولا يكون للنوم، فالمتعب والمجهد يستلقي بنفسه على ظهره، مما يدل على المبالغة في الرفاهية. وكذلك من إمتاعهم في الدنيا أن يجعل لبيوتهم ﴿ وَزُخۡرُفٗا ﴾ وهي الزينة: من النقوش ونحوها، ليفيد كثرة المحاسن من الجمال والرفاهية العالية التي تجاوزت تلبية كمال الحاجة إلى الزينة بأنواعها، حتى في الأسقف والحيطان والأبواب، والأسرة.

ثم يخبر سبحانه أن جميع تلك الرفاهية والمتعة هي خاصة بالدنيا الفانية، التي سيتركها العباد ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ فجميع تلك الرفاهية والمتعة من الزينة ونحوها، هي متعة الدنيا الفانية، والتي خاتمتها ومآلها للزوال والانقراض. فيكون قد نالوا متعتهم التي استعجلوها في الدنيا الفانية، بينما المطيعين الذين يتقون الله تعالى، فإن لهم المتعة الباقية الدائمة في الآخرة، فقال تعالى عن المتقين ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ فإن نعيم الآخرة لمن اتصفوا بالتقوى، أولئك الذين ابتعدوا عن الشرك والرياء، واتقوى ما حرم الله تعالى، واجتنبوا المعاصي، خائفين من عذاب الله تعالى، وراجين ما عند ربهم من الثواب، فكانوا متمسكين بطاعة الله تعالى وفق ما شرع، رجاء رحمته وعفوه، وما أعده من النعيم الذي لا يفنى ولا ينقطع.

وفي هذا كشف للحقائق من الله تعالى، بما يبين أن زينة الدنيا وزخرفها هينة وسهلة عند الله تعالى، بأن يعطيها على أكمل ما يكون لمن يريد، ولكن حكمة الله تعالى تقتضي ما يشاء ويختار، وبما يحقق به مصالح العباد. وفي هذا تصحيح لمفاهيم العباد عن عطاء الله تعالى، وتقديره وتوسعته، ليكون الإنسان على بينة من

أمره، وحاضره ومستقبله، وكذلك فيه بيان للإنسان أن حال هذه الدنيا قصير، بما يدفع الإنسان إلى التمسك بالحق والطاعة لله تعالى، وبالخير، والانضباط وفق دين الله تعالى في عموم حياته الفانية، وألا يغتر بزينتها، فيندفع إلى ابتغاء زينتها بالمعصية. فنحمد الله تعالى على هذا البيان العظيم الكريم، ونسأله سبحانه وتعالى حُسن الخاتمة وخير الآخرة، لنا وللمسلمين أجمعين.

ويعتبر قوله تعالى ﴿ وَٱلْأَخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ قاعدة لغرس التقوى، والاستمرار عليها، بأن يُذَكِّر الإنسانُ نفسه دائماً بقوله تعالى ﴿ وَٱلْأَخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وإذا رأى من نفسه شيئاً يخالف التقوى، خاطب نفسه بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَٱلْأَخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وإذا ركنت النفس إلى الراحة والدعة والتقصير عن الطاعة خاطب نفسه بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَٱلْأَخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ فهي قوة دافعة للخير، والبعد عن الشر والتقصير. وإن رأى من غيره ما يخالف التقوى، وعظه وذَكَّرَهُ بقوله تعالى ﴿ وَٱلْأَخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ فهي علاج وقوة.

ثم يخبر الله تعالى بحال من يتعامى ويتغافل عن ذكره عَزَّ وجل، بأن يسلط عليه شيطاناً يلازمه، فيغويه، وذلك عقوبة له على صدوده عن ذكر ربه سبحانه وتعالى. فقال عَزَّ وجل محذراً عباده من التشاغل والتغافل عن طاعته ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ فإن من ﴿ يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ أي: فمن يتغافل ويتشاغل عن ذكر الرحمن سبحانه وتعالى من غير خوف ولا اهتمام، فلم يلتفت إلى كلام ربه جَلَّ جلاله ﴿ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ نجعل له شيطاناً يغويه، فهو له قرين[1] نهيئ له شيطاناً يلازمه. أي: نظراء، مماثلين لهم في الجحود والكفر والمعصية من الشياطين. وقال الشوكاني رحمه الله تعالى عن معنى ﴿ يَعْشُ ﴾ أي: أعرضت. تقول عشوت إلى النار قصدتها، وعشوت عنها أعرضت عنها[2] فبذلك تعني دلالة ﴿ يَعْشُ ﴾ الإعراض بالتغافل والتشاغل. مما يفيد أن معنى ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ أي: يُعرض بالتشاغل والتغافل في غير خوف ولا مبالات بأي عقوبة تصيبه من الله تعالى، قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: ومن يعرض عن ذكر الله تعالى فلم يخف سطوته، ولم يخش عقابه

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٠/٥٩٥)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٤/٥٥٦)

﴿ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ نجعل له شيطاناً يغويه، فهو له قرين[١] نهيئ له شيطاناً يلازمه. أي: نظراء، مماثلين لهم في الجحود والكفر والمعصية من الشياطين. ومعنى ﴿ قَرِينٌ ﴾ المصاحب والملازم، والمماثل. فهو مصاحب للمعرض عن ذكر الله تعالى، وملازم له، فلا يفارقه، ومشابه له في الإعراض. مما يعظ الإنسان بأن يحذر عقوبة الله تعالى، بلزوم الطاعة والامتثال لله تبارك وتعالى.

وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: قال المفسرون عن قوله تعالى ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ فلم يخف عقابه، ولم يلتفت إلى كلامه عَزَّ وجل ﴿ نُقَيِّضْ لَهُۥ ﴾ نسبب له ﴿ شَيْطَٰنًا ﴾ فنجعل ذلك جزاءه ﴿ فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ لا يفارقه[٢] فمن يتغافل ويتشاغل عن ذكر الرحمن، والذي يشمل ويجمع عموم ذكره سبحانه وتعالى، من: التسبيح والتهليل والتكبير، وتلاوة القرآن الكريم، وأداء العبادات، والدعاء وأداء الفرائض في السراء والضراء. فإنه يُعاقب بتسليط قرين مماثل له في المعصية، من الشياطين فيصاحبه، ولا يفارقه.

وتعتبر هذه الآية قاعدة للمؤمنين، وقاعدة وحجة في أن الفلاح معقود بذكر الرحمن سبحانه وتعالى، لأن كثرة ذكر الله تعالى تجعل الإنسان في يقظة مستمرة. فيتذكر بها ما يجب عليه فيؤديه، ويذكر بذكر الله تعالى ما هو محرم عليه فيجتنبه. وفي الذكر تَخَلُّص من الغفلة والنسيان الذي سببه الانشغال بالدنيا عن الطاعة لله تعالى. وقد خصه الله تعالى هنا بالتشاغل المتعمد ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ ليخرج بذلك غير المتعمد، والذي لا يخلو منه جنس الإنسان، كالنسيان الطبيعي الذي لا يخلو منه أحد من الجنس البشري.

ثم يخبر الله تعالى بما يفعل القرين من الشياطين بمن صد وتغافل عن ذكره سبحانه وتعالى، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ فإن هؤلاء القرناء من الشياطين الذين يقيضهم الله تعالى للمتغافلين عن ذكره سبحانه وتعالى ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ فإنهم يحولون بينهم وبين طريق الحق الذي هو سبيله، ويزينون لهم الامتناع عنه سبيل الحق، ويشنعونه عليهم، ويُصَعِّبُونه لهم، فيستثقلونه، ويوسوسون لهم بما يحفزهم للامتناع عن سبيل الله تعالى، وكذلك يجعلونهم في حسبان خاطئ ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ فيعتقدون أنهم على الحق، وهم أبعد ما يكنون عنه، وذلك بما يوسوسون لهم: بأنهم على الهدى، كذباً وزوراً، وتزويراً للحقائق. وهم أبعد ما يكونون عن الحق. فيطيعون القرناء بما يكون منهم من الوسوسة والتزيين لطريق الباطل. مما يفيد أن مداومة الطاعة تفتح العقل والقلب على

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٠/٥٩٥)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧/٩٨)

محبة سبيل الله تعالى ولزومه، مع البعد عن قرين السوء ومصائده. كما يفيد ذلك أن الانشغال عن ذكر الله تعالى يفتح أبواب الشياطين لغواية الإنسان، وأن الوقاية والحذر تكون بكثرة الطاعة ولزومها.

ثم يخبر الله تعالى عن حال هذا الذي أعرض عن ذكر الرحمن وقرينه من الشياطين يوم القيامة، فيقول تبارك وتعالى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾ فإن حاله بعد استمراره في الإعراض عن ذكر ربه ، هو إظهار عظيم التحسر والندم، متمنياً لو أن المسافة قد تباعدت بينه وبين قرينه بُعْد المشرق عن المغرب.

وقد بدأ مطلع البيان الكريم بحرف ﴿ حَتَّىٰٓ ﴾ الذي أفاد الغاية، فدل على استمرار الْمُعْرِض عن ذكر الرحمن في بُعْدِه عن ذكر الله تعالى حتى مات وانقضت حياته في الدنيا، فجاء إلى ربه ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا ﴾ أي: حتى إذا جاء إلى ربه يوم القيامة هو وقرينه، وشاهد الأهوال المذهلة ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ﴾ قال مخاطباً لقرينه: متمنياً أن لو كان بُعد المسافة بينهما كان عظيماً ليكون الحائل بينهم هو التباعد. ولكن كانت أمنيته في الساعة واللحظة التي لا ينفع فيها التمني والندم. فقد قال ذلك متحسراً على ما فاته من الطاعة لربه، وما كان عليه من الكفر والمعصية ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ ﴾ فيقول لقرينه: متمنياً من هول ما رأى، ومما هو مُقبل عليه من العذاب، أن لو كانت المسافة بيمها بُعد المشرق عن المغرب. وسُمِّيَّ ﴿ٱلْمَشْرِقَيْنِ ﴾ بتغليب المشرق على المغرب. قال الفراء رحمه الله تعالى: أراد المشرق والمغرب، فَغَلَّب اسم أحدهما على الآخر. كما يُقال: القمران، للشمس والقمر[1] ليدل على قوة الحسرة والندامة على ما لا يمكن تداركه واستعادته وإصلاحه. ثم يزداد اللوم بقوله ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾ فبئس أنت أيها الشيطان الذي لا زمتني ملازمة لم تفارقني فيها، حتى وصلت إلى هذه النتيجة المؤلمة التي لا سبيل للخروج منها. وكلمة ﴿فَبِئْسَ ﴾ تفيد أشد كلمات الذم.

وفي هذا بيان لفظاعة الحسرة والندامة، وما يؤدي إليه الإعراض عن ذكر الله تعالى من الخزي والندامة، ساعة لا ينتفع بها. بما يفيد أن هذه الحال هي حال من أعرض عن ذكر الرحمن، ليتأكد بذلك وجوب الحذر من النتيجة المخزية التي لا يمكن تداركها أبداً. وهذا الوعظ هو من رحمة الله تعالى بالعباد، إذ يخبرهم ويريهم مصارع المعصية قبل تحققها فيهم، ليكون قد وعظ وأنذر وحذر تبارك وتعالى عباده، وبالتالي لا يلوم كل أحد إلا نفسه. وهذا كله من رحمة الله تعالى بعباده، إذ يبصرهم بما يجب عليهم، ويحذرهم بكل وسيلة.

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦١/١٦)

ثم يخبر الله تعالى بما يُقال لهم يوم القيامة، بما تزداد به الحسرات ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ لن تنتفعوا اليوم بتحسركم وندامتكم على ما كان منكم ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ فهذا القول لا تنتفعون به اليوم، لأنكم أنتم الذين أوقعتم أنفسكم في هذا العذاب المهين ﴿ إِذ ظَّلَمْتُمْ ﴾ إذ وقع الظلم منكم لأنفسكم بالبعد عن طاعة الله تعالى ﴿ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ فكلاكما في العذاب مشتركون، كما اشتركتم في الإعراض عن ذكر الله تعالى في الحياة الدنيا كذلك تشتركون في عذاب الآخرة. ليفيد الحذر من النتيجة المخزية التي لا يمكن تداركها أبداً. فهي موعظة بما هو قادم لكل من أعرض عن طاعة الله تعالى. مما يستوجب الحذر قبل أن يكون ذلك المصير المخزي الذي لا يمكن تداركه.

﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

ثم ينتقل البيان إلى إخبار الله سبحانه وتعالى بحدود مسؤولية الرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك بأسلوب السؤال الذي يقرر فيه: أن ليس للرسول صلى الله عليه وسلم هداية من أصم أذنيه عن الحق، ومن كف بصره عن رؤية الحق، فقال تبارك وتعالى ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ فليس لك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم أن تُسمع الحق لمن امتنع عنه. بأن أصم أذنه عن سماع الحق، وكذلك من كف بصره ومنعه عن مشاهدة الآيات الدالة على الحق.

وهو إنكار وتعجب بما يقرر أن حرصك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم لن ينفع في هداية هؤلاء الذين بلغ حالهم كحال من في أذنيه صمم ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ﴾ فهل تستطيع أيها الرسول صلى الله عليه وسلم أن تُسمع الأصم؟ فالجواب الطبيعي أنه: لا يمكن ذلك. فإذاً لا يمكنك مهما حاولت أن تجعلهم يسمعون الحق ويستجيبون له. وبالتالي فلا يضيق صدرك بعنادهم. ثم عضد سبحانه وتعالى هذا البيان بحالة أخرى، ليفيد قوة التأكيد للحالة الأولى، فقال تعالى ﴿ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ ﴾ أو أن تهدي من كان حاله كحال الأعمى الذي فقد بصره عن رؤية البراهين والحجج. فلن تستطيع هداية من كان ممتنعاً عن رؤية الأدلة والآيات والحجج بعينيه. لأنه لا يريد أن يبصر الحق بعينه، فهل تستطيع هداية من هذه حاله؟ وتتحكم في بصره. لتقنعه وهو

يرفض رؤية الحق. فحال بعض المعاندين كحال الأصم والأعمى عن السبيل، فلا يريد أن يسلكه بهداية غيره له. فلا هذا تستطيع أن تهديه، ولا ذاك تستطيع أن تهديه. وفي هذا تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم، بإيراد حقيقة المعاندين. فإن حرصك لا يجدي مع المعاند الذين صار حالهم كالأصم، والأعمى.

ثم يزداد التأكيد من تعذر هدايتهم بوصف تجذر العناد للحق فيهم، وتوطُّنه في قلوبهم ﴿ وَمَن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ فلا تستطيع أن تهدي من كان كذلك في ضلاله الواضح والظاهر له أنه في ضلال، مع ما جاءه من الحق الواضح المبين الذي يكشف له ما هو عليه من الباطل.

بما يفيد أن المعاندين من الكفرة لدعوتك، هم بمثابة ومكانة ومنزلة الأصم الذي لا يسمع، أو كالأعمى الذي لا يبصر. مما يدل على إفراطهم في العناد، وفي الضلالة التي يعيشونها. فهؤلاء قد فسدت إرادتهم للحق، بسبب الاستكبار، فمن يفتعل فعل الأصم عن الحق، وفعل الأعمى عن رؤية الحق، ومن يُصِر على ضلاله الواضح فكيف لك أن تهديه، حتى يقبل منك الهدى والرشاد. مما يبين أن مهمة الداعية إلى الله تعالى هو هداية الإرشاد، ببيان الحق للغير، وإرشادهم، ووعظهم بكل ما يستطيع، وأما هداية التوفيق والقبول فلا يملكها أحد من الناس. فلا تيأس ولا تبتئس، فهذه هي أحوال بعض الناس في القبول والصدود.

ثم يخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بما سيكون من حال هؤلاء، وحال الرسول معهم صلى الله عليه وسلم، فيقول تبارك وتعالى ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴾ فإما أن نذهب بك أيها الرسول عنهم بالوفاة قبل أن ينزل انتقام ربك منهم بالعذاب. وهذه الحالة الأولى الممكنة: ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ ﴾ أي: نذهب بك بالوفاة قبل أن ينزل العذاب بهم، وتأتي بمعنى: أن نخرجك من مكة لينزل العذاب بهم بعد خروجك منها، ثم يقرر تبارك وتعالى لزوم الانتقام منهم ﴿ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴾ فإنا قد قضينا بالانتقام منهم. فإن الانتقام منهم حاصل لهم، فقد يكون في الدنيا، وقد يكون في الآخرة، وقد يجمع الله تعالى بين ذلك في الدنيا بالقتل والأسر، وفي الآخرة بما يستحقون من العذاب.

وأما الحالة الثانية: ﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَـٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴾ وأما الحالة الثانية: فهي تمكين الرسول صلى الله عليه وسلم من رؤية ما يحل بهم من العذاب ﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَـٰهُمْ ﴾ نجعلك تشاهد بعينك ما وعدناهم به من العذاب. فترى قبل موتك حلول العذاب بهم، بحسب ما وعدناهم وقضينا به. ثم يقرر ويؤكد سبحانه وتعالى تحقق العذاب فيهم ببيان كمال قدرته عَزَّ وجل عليهم ﴿ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴾ فإن قدرتنا متمكنة منهم كمال التمكن، بما يفيد لن يجدوا ما يفوتون به علينا. وليفيد متى شئنا ألحقنا بهم العذاب

الذي قضينا به عليهم. وقد أراه الله تعالى ما لحق بهم يوم بدر. وما بعدها من الغزوات. حتى عَلَت كلمةُ الله تعالى، وشاهد الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك، ومن ذلك ما كان من فتح مكة، فأذعنوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم يوجه الله تبارك وتعالى رسوله عليه الصلاة والسلام بالثبات على ما أوحى الله تعالى به عليه ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ فاستمسك بما أوحى الله تعالى به عليك من القرآن والسنة، فإنه هو الحق الظاهر المبين، وإن كذب به المكذبون. ليفيد: أن تكذيب المكذبين لا يحصل به الشك فيما أُنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم. وليفيد كذلك الإرشاد للناس جميعاً: بأن تكذيب من كذب وطعن في القرآن العظيم فإنه باطل ومهزوم أصحاب الباطل، وأن الله تعالى سَيُثَبِّت رسولَه صلى الله عليه وسلم ويثبت المؤمنين معه، ويبقى هذا القرآن وجميع ما أوحى الله تعالى به على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه ناصره، ومنتصر على كل من كذب به، وطعن فيه.

ثم يؤكد تبارك وتعالى صحة وسلامة ما عليه الرسول صلى الله عليه وسلم، فيقول عَزَّ وجل ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ فإنك أيها الرسول على منهج الإسلام المستقيم، الذي خلا من كل شائبة. فقد جمع قوله تعالى ﴿ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ جميع ما أوحى الله تعالى به، من القرآن والسنة، فإن جميع ما عليه الرسول صلى الله عليه وسلم هو الحق الذي لا باطل فيه، وأنه الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه أبداً، وأنه يسير بمن أخذه إلى سعادة الدنيا والآخرة. وفي هذا إعلان وبيان لجميع العباد بحقيقة ما عليه الرسول صلى الله عليه وسلم من الحق، وبما يعطي دلالة النصر، لأن النصر للحق، والهزيمة للباطل، وأن كل من يواجه دين الله تعالى فإنه مهزوم.

ثم يُرَغِّبُ الله تعالى قوم النبي صلى الله عليه وسلم بالأخذ بهذا الدين، والتمسك به، فإن فيه العزة والمنقبة الرفيعة العظيمة. فقال تبارك وتعالى ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ فإن هذا القرآن العظيم يكسبكم الذكر والشرف والمنقبة العظيمة لك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم وكذلك لقومك، فإنه قد نزل بلغتكم، وأنه يعلو بكم، ويرفع شأنكم، فعليكم الأخذ به، وتوليه، والعناية به. مما يفيد أن كل من أخذ بالقرآن واعتنى به فإنه يكسبه الشرف والمنزلة التي ترفع من ذكره في الدنيا والآخرة. وأنه يحقق لصاحبه كذلك كثرة ذكر الله تعالى، فترتفع منزلته. كما يفيد ذلك الذم والتشنيع على من خالفه، ولم يأخذ به، أو من عاداه. ولذلك ارتفع ذكره عليه الصلاة والسلام، وكذلك الصحابة رضي الله عنهم، والتابعين من بعدهم، إلى يومنا هذا، وإلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها.

ثم يخبر الله تبارك وتعالى بما ينالهم من المسؤولية إن فَرَّطُوا بهذه النعمة العظيمة الجليلة، فقال سبحانه وتعالى ﴿وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴾ فإنكم سوف تُسألون عن نعمة هذا القرآن، ونعمة هذا الدين، فكيف كان حالكم في الاستجابة له، والعمل به، فهل شكرتم، وأخذتم به، وطبقتم ما جاءكم به، وأديتم حقه أم ضيعتموه؟ ليفيد أن كل نعمة يُنْعِم بها الله تعالى على العباد فإنهم يُسألون عنها، فيما صنعوا بها. ليفيد أهمية إيلاء نعمة الدين عموماً، ونعمة القرآن خصوصاً، وكل نعمة أن يولوها جُل الاهتمام، وبكل وجه من أوجه العناية والاهتمام.

ثم ينتقل السياق الكريم إلى بيان عظمة توحيد الله تعالى، ونفي الشرك عن دينه، وإبطال كل معبود من دونه سبحانه وتعالى. فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةً يُعۡبَدُونَ ﴾ يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ وَسۡـَٔلۡ ﴾ ابحث بالسؤال والتنقيب أولئك ﴿مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ ﴾ فاسأل فيمن سبقك من المرسلين فيما إن كنا جعلنا آلهة تُعبد من دون الله عَزَّ وجل. قال ابن زيد رحمه الله تعالى: جُمِعُوا له ليلة أُسري به ببيت المقدس، فأمهم، وصلى بهم، فقال الله تعالى له: سلهم. قال: فكان أشد إيماناً ويقيناً بالله تعالى، وبما جاءه من الله تعالى من أن يسألهم[١] قال الزهري، وسعيد بن جبير، وابن زيد: إن جبريل قال ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم لَمَّا أُسري به[٢] وهو سؤال يفيد تأكيد الإثبات بأن جميع المرسلين يُبطلون الشرك، وينهون عنه. ويأمرون بتوحيد الله تعالى، وإفراده بالعبادة. وهو سؤال تأكيد، ينفي به سبحانه وتعالى أي معبود من دونه عَزَّ وجل.

وقد أكد سبحانه أهمية التوحيد في هذا السياق، بأن حدد موطن السؤال لبيان أهميته، وهو ﴿أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةً يُعۡبَدُونَ ﴾ سؤال يقرر بأنه سبحانه وتعالى لم يجعل إي آلهة تُعبد من دونه عَزَّ وجل، ليقطع بذلك كل من ظن أو اعتقد، أو شُبِّه له بشيء من تلك المعبودات، فإن الله تعالى لم يأمر بها البتة، بل نهى عنها، في جميع رسالات المرسلين على كثرتهم وتعددهم ممن سبق رسوله محمد صلى الله وسلم عليهم أجمعين. ليقطع ببطلانها.

ومن الفوائد أن تم توجيه السؤال للنبي صلى الله عليه وسلم، وهو من يدرك إدراكاً جازماً بأن الله تعالى لم يأمر المرسلين بالشرك. ولكن لتعظيم السؤال، وتعظيم مضمونه، وتعظيم توحيد الله تعالى، ونفي الشرك نفياً قاطعاً، إفهاماً للناس في شخص النبي صلى الله عليه وسلم وفي جميع من سبق من المرسلين عليهم الصلاة والسلام.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٠/٦٠٥)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٤/٥٥٧)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

ينتقل البيان الكريم إلى طرف من قصة موسى عليه الصلاة والسلام مع فرعون، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ولقد بعثنا رسولنا موسى عليه السلام بحجتنا وأدلتنا وبراهيننا إلى فرعون ﴿ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾ وهم أعيان وأشراف قومه، فخاطبهم موسى عليه السلام ﴿ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ إنني مُرسَل لكم من رب العالمين، حاملاً معه الحجج والبراهين ﴿ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ التي تثبت أنه رسول من عند الله رب العالمين ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ فلما أظهر لهم آيات الله تعالى وبراهينه أنه رسول من عند ربهم ﴿ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ يستهزئون ويسخرون. فحالهم كحال كفار قريش، ومشابه لهم. وقد أفاد حرف ﴿ إِذَا ﴾ المفاجأة، بما يدل على أن ردهم كان مفاجئاً لأنه كان معاكساً ومضاداً لما كان يجب عليهم أمام تلك الآيات الباهرات التي جاء بها موسى. وأوضح البيان استهزاءهم بالضحك ﴿ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ لأن الضحك يفيد السخرية، والاستخفاف، والاستهزاء، الذي أعطى دلالة على قوة تكذيبهم إلى درجة أنهم قابلوا الآيات بالاستهزاء، فارتقوا في استهزائهم إلى حالة الضحك، ليعطوا انطباعاً بأن الآيات مُضحكة، وبالتالي فإننا لا نأبه بها ولا نصدقها، مع تحقيرهم لها ولرسول الله موسى عليه الصلاة والسلام. الذي كان مفاجئاً منهم ذلك الأمر أمام تلك الآيات البينات من الحجج والبراهين على نبوة موسى عليه السلام. فيكون هذا إشارة إلى أن حال من كفر بك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم مماثل لمن كفر من قبل بموسى عليه السلام. فلا تبتئس منهم.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بتعاظم الآيات والدلائل التي أتى بها موسى عليه الصلاة والسلام، فيقول عَزَّ وجل ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ فما من آية يعرضها موسى عليه السلام عليهم إلا وهي أعظم من التي قبلها ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ بما يفيد التدرج في تعاظمها، فكل آية قد اتصفت بالعظمة، وكل عظمة هي أعظم من التي قبلها، لإفادة تعاظم العظيم من الدلائل التي تُكذب وتُبهت المنكر، وتُوجِب عليه التصديق والإيمان والإقرار بأن هذا رسول من الله تعالى، ثم يخبر جَلَّ في علاه بما نزل بهم من العذاب، بسبب تكذيبهم لحجج وبراهين رب العالمين ﴿وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ فبسبب تكذيبهم مسسناهم بالعذاب، كالقحط والجراد والقمل، والطوفان، والضفادع، والدم، كما قال تعالى في سورة اعراف ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ فقد سمى الله تبارك وتعالى ما أرسله آيات، أي: براهين وعلامات وحجج ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ لعلهم يرجعون عن غيهم وضلالهم وجهلهم. ولكن المستكبر يتعالى، ويتمادى في طغيانه على جميع المستويات. مما يستوجب الحذر من مغبة الاستعلاء والاستنكاف من قبول الحق، وأهمية إذعان وتربية النفس على التواضع في قبول الحق.

ثم يخبر الله تعالى بردهم السيء لرسول الله موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ فأسموا موسى عليه الصلاة والسلام بالساحر، ونادوه نداء الوصف والوسم له بالسحر استجداء حتى يرفع عنهم البلاء الذي أصابهم ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ﴾ وفي سورة الأعراف كان النداء باسمه ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ ﴾ مما يدل على تنوع وتعدد النداء، وتكراره، فتارة يناديه البعض باسمه، وتارة يناديه البعض الآخر بالساحر. بما يدل على أنهم تعارفوا بينهم بالقول له بذلك، وشاع بينهم. ولما أن النداء واقع في الحالة التي يعانون فيها من العذاب، فَيُحمَل على ما رواه أبو صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنهم أرادوا أيها العالم، وكان الساحر فيهم عظيماً[١] ثم حرروا مقصدهم وحاجتهم بأن طلبوا من موسى عليه الصلاة والسلام أن يدعو الله أن يرفع عنهم ما هم فيه من

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٠١/٧)

العذاب ﴿ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ أطلب من ربك ﴿ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ بما استودعك من العلم والنبوة التي أخبرتنا عنها، فإن كشفت عنا هذا العذاب الذي نحن فيه ﴿ إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ ﴾ فإننا نؤكد لك بأننا مهتدون لما جئتنا به إن تم كشف العذاب عنا. وفي هذا القول منهم ﴿ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ أي: بما استودعك من العلم، أو بما اختصك به من النبوة، فهذا دليل اعتراف منهم بحقيقة نبوة موسى عليه الصلاة والسلام. وقد اشترطوا على أنفسهم بالاهتداء إن ذهب الرجز عنهم ﴿ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ ﴾ لئن ذهب عنا هذا العذاب لنصدقك بما جئت به.

ثم يخبر الله تعالى بحالهم بعد أن كشف العذاب عنهم، فقال تعالى ﴿ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ﴾ فلما كشف الله تعالى عنهم عذاب الدنيا إذا بهم ينكثون العهد ويغدرون، فلم يؤمنوا، فكانوا في عناد وإصرار على ضلالهم. مما يبين قوة تماديهم في الكفر والإنكار للحق، وهم الطالبون برفع ما أصابهم من العذاب، ولما رفع اللهُ تعالى عنهم ما أصابهم كأنه لم يحدث لهم عظيم النعمة بزوال العذاب، فقابلوه بالكفر.

وأما فرعون فإنه لما رأى ذلك، وخاف أن يتجه الناس إلى موسى عليه الصلاة والسلام، قام منادياً في قومه ﴿ وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ فرفع فرعون صوته منادياً، وآمراً من ينادي في الناس ﴿ وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ ﴾ لأنه لا يمكنه وحده إعلام القوم جميعاً بما يريد، فإسناد النداء له، لأنه الآمر به، ويكون النداء باسمه ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ ﴾ فأول ما ناداهم به هو الإخبار بملكه، من خلال السؤال الذي يقرر به أنه ملك بلاد مصر ﴿ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ ﴾ ألستم تعرفون أن لي مُلك بلاد مصر، وهو سؤال تقرير وتأكيد. ثم ازداد تطاوله بأن ادَّعَى أن الأنهار ملكه ﴿ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓ ﴾ وهي فروع نهر النيل التي تجري تحت قصره، متباهياً بمكانته ومنزلته ﴿ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ أفلا ترون ما يدلكم على قوتي، وعظمتي، التي تُوجب عليكم أن تطيعوني، ولا تلتفتوا إلى موسى. فأنا المتولي لشؤونك، وشؤون مصر، وأهلها. مما يدل على أن المتجبر والمتكبر لا يريد أن ينزع عن نفسه رداء التعاظم أمام الحق الذي ظهر لكل أحد منهم، بما رفع الله عنهم من عذاب كثرة الجراد، والقمل، والضفادع، القحط، والطوفان، والدم، وغيرها من آيات العذاب التي تخالطهم وتلازمهم في حياتهم اليومية.

ثم يقارن فرعون بين نفسه وبين موسى عليه السلام بصيغة الترفع والتعالي عليه، واختلاق التعاظم، وادعاء القوة، بما يدل على الإصرار ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ بل أنا خير من هذا الذي لا يستطيع أن يُفصح في الكلام، تصغيراً لشأن موسى عليه السلام الذي وصفه بالمهين ﴿ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ ﴾ أي: الذليل والضعيف، فليس له من المكانة شيء، ليحصر المنزلة والمكانة في نفسه فقط. محاولاً بهذا الانتصار استضعاف موسى عليه الصلاة والسلام وتحقيره.

ثم وصفه بما كان مما كان في موسى عليه الصلاة والسلام من العقدة التي كانت في لسانه ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ أي: ولا يكاد يفصح عن قوله ومراده. وقد كانت عقدة كائنة في لسان موسى عليه الصلاة والسلام، ثم أذهبها الله تعالى بقدرته. كما ورد في سورة طه من دعاء موسى ربه سبحانه وتعالى بأن يحلل عقدة من لسانه ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴾ حيث طلب من الله تعالى إزالة أمراً كان كائناً في لسانه، مما يفيد أن في لسانه علة مانعة أو عائقة من كمال الإفصاح، وليست مانعة من الإفصاح، بدليل أنه كَلَّم ربه، وسأله بمنطوق الكلام الذي قد أثبته القرآن الكريم له. فأراد فرعون إسقاط منزلة موسى عليه الصلاة والسلام، والاستعلاء بنفسه، خوفاً من متابعة قومه لموسى عليه السلام. مما يبين أن المتعالي يتلمس الباطل ليضفيه على غيره، ويتلمس القوة ويضفيها على نفسه. ويحاول تغطية باطله بقوته وجبروته، وهيبته.

ثم بعد أن رفع من منزلة نفسه، واستهان برسول الله موسى عليه السلام، يحاول تشويه صدق رسالة موسى عليه الصلاة والسلام باختلاق الأباطيل ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ فإذا كان موسى محقاً وصادقاً أنه رسول، فهلا أُنزِل وأُلقي عليه من السماء أسورة من ذهب، فيتحلى بها في يديه، ليدل على أنه عظيم. فإنه في عرفهم أن العظمة بقدر ما يكون عليه المتعاظم من الذهب. قال مجاهد رحمه الله تعالى: كانوا إذا سوروا رجلاً، سوروه بسوارين، وطوقوه بطوق ذهب، علامة لسيادته(١) والأسورة جمع سوار، وهو ما يحيط برسغ اليد من الْحِلَق التي تكون من الذهب، أو الفضة.

وإن لم يكن شيء من أساور الذهب التي كان الأولى أن تُلقى عليه من السماء، فهناك خيار آخر وهو ﴿ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾ أو أن تأتي الملائكة معه مرافقين له، فيعضدونه ويكتنفونه،

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦٧/١٦)

بالتأييد والشاهدة له. أي: أن تأتي معه الملائكة متتابعين، يمشون معه. فإن لم يكن معه شيء من ذلك فهو ليس برسول. وكأن تقرير هيئة وصفة الرسول والآيات خاضعة له، أو لما يقترحه وغيره. فإن الأمر كله لله سبحانه وتعالى.

وقد بدأ البيان بحرف التحضيض ﴿ فَلَوْلَآ ﴾ لُيظهر به انتفاء النبوة، لافتقاده أسورة الذهب، أو اقتران الملائكة معه. بما يفيد أنه يريد أن يكون تحديد الآيات له بنفسه، بالرغم من أن الآيات التي جاء بها موسى لا تقارن بما اقترحه، ولكن أراد فرعون بذلك أن يصرف ويُلَبِّس على أتباعه وعلى قومه. مما يبين أن الجاحد يحاول أن يبحث عن كل ما يصرف الناس عما لا يريده إلى ما يهواه ويريده ويبتغيه. كما يبين ذلك قوة مكره، وأنه يبذل أقصى ما يمكنه لرد الحق بالافتراءات الباطلة، ليصد الناس عن سواء السبيل. وهذا يتطلب من الإنسان ألا يجعل عقله تبعاً لأهواء غيره، بل يجعل مدار عقله على الحق، حتى يتلافى ويتقي خداع المخادعين، ومكر الماكرين.

وهنا يظهر أنه قد أثَّر على عقول قومه، فحصل منهم الطاعة له، والقناعة بما قاله عن موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴾ فاستخف عقول قومه بما اقترح عليهم ﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ ﴾ فاستجهل قومه، فقبلوا تجهيله لهم. فإن فرعون بما قاله لقومه قد أثر فيهم، لأنه حَمَلَهُم على السفه، وذلك باستخفافه لعقول قومه، حتى تجرأ عليهم، فأصبحوا مُنقادين له، فيقتنعون بما يقوله، فكأنه استحوذ على عقولهم بكثرة ما يتعاظم به عليهم، حتى صاروا يعظمون أقواله دون تأمل وتفكر. فأفاد قوله تعالى عن فرعون وقومه ﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾ المبالغة في الاتباع من غير تأمل وتفكير فيما يقوله لهم ﴿فَأَطَاعُوهُ ﴾ فأطاعوه في تكذيب موسى عليه الصلاة والسلام.

وبمخالفة قوم فرعون لرسول الله موسى عليه الصلاة والسلام بالرغم من الأدلة التي منها ما رفع الله تعالى به الرجز عنهم، فقد تحقق فيهم صفة الفسق ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴾ أي: خارجين ومارقين عن الحق الذي أيقنوه. فقد خرجوا مما تعهدوا به وهو ﴿ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ ﴾ فلئن ذهب عنا هذا العذاب لنصدقك بما جئت به، فنتبعك. ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴾ خارجين عن طاعة الله تعالى، وعما تعهدوا به. مما يبين أثر الملازمة للطاغية، ولمن يستخف غيره، بأنه مع التعود عليه، يصبحون في انقياد له على باطله، ويرون الصواب في خطئه، ويصدقونه في تكذيبه للحق، ويكذبون بالحق أمام باطله. فإن جملة ﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾ تبين قوة أثر المداومة على الشيء، فإنها تُفسد العقل

أيما فساد. فحق عليهم الحكم بما يستحقون ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ إنهم قوم خارجون عن الحق بعد ما عرفوه. مما يبين الحذر ممن يستخفون بعقول غيرهم، بما يُهَوِّنُونَه عليهم من الباطل، وبما يُثيرونه ويمجدونه مما يحبون من الباطل، فإنهم يصبحون بعد ذلك طُعماً سائغاً لمن استخف بهم، وتدربوا وتعودوا على تلك المهانة والاستضعاف. فإن من أعظم إنعام الله تعالى للعباد أن وهبهم العقول للتفكر والتأمل، ليدركوا بها الحق من الباطل.

ومن دقائق البيان أن وصفهم الله تعالى بالفسق ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ والفسق هو الخروج من الشيء بعد الدخول فيه. فقد دخلوا في إلزام أنفسهم بالإيمان والتصديق إن رفع الله تعالى عنهم العذاب. فلما أذهب الله عَزَّ وجل عنهم هذا العذاب، خرجوا عما تعهدوا به. فكان وصفهم بالفسق وصفاً دقيقاً، وبليغاً. فإنهم خارجين عن طاعة الله تعالى، وعما تعهدوا به.

ثم يخبر الله تعالى بعقابه لهم ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فلما أغضبونا بما كان منهم، أغرقناهم جميعاً. فانتقم الله تعالى منهم؛ بأن أغرقهم في البحر، وذلك لتكذيبهم بآيات الله تعالى التي عرفوها واعترفوا بها، ولكنهم تغافلوا عنها، وتركوا الاعتبار بها؛ وكأنها لم تكن شيئا، وذلك من شدة ما كانوا عليه من العناد، واستخفاف عقولهم وطواعيتهم لفرعون. وفي هذا ما يدل على خطورة الكبر، إذ حال بينهم وبين ما عرفوا من الحق. ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴾ فجعلهم اللهُ سبحانه وتعالى لغيرهم عبرة ومَوعظة لمن أراد أن يعتبر ويتعظ. مما يفيد أهمية الاعتبار وأهمية الانقياد والطاعة لله سبحان وتعالى.

ومن دقائق البيان أن قد جعلهم الله تعالى عبرة سابقة لغيرهم ممن يأتي من بعدهم من الأمم، فقال تعالى ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا ﴾ أي: متقدمين لغيرهم، فيكونون بذلك لمن بعدهم سلفاً تحمل العبرة لغيرهم. لأن السلف تعني: المتقدم، وكذلك جعلهم ﴿وَمَثَلًا ﴾ أي: عبرة وموعظة ﴿لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴾ لغيرهم، ممن يأتي من بعدهم. وبالتالي عليكم أيها الناس الاعتبار بذلك، فأطيعوا رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولا تكونوا كمن سبق ممن كفر بالمرسلين، فتكون عاقبتكم كعاقبتهم. فاحذروا وأطيعوا خيراً لكم وأحسن في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ

إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ ﴾

وبعد أن ذكر الله تبارك وتعالى شأن رسوله موسى عليه السلام مع فرعون وملئه، ينتقل البيان الكريم إلى شأن عيسى ابن مريم عليه السلام، فيقول تبارك وتعالى ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ ولما جعل الله تعالى عبادة عيسى ابن مريم محرمة، وأنها مماثلة لمن عبد الأصنام والأنداد ﴿إِذَا قَوْمُكَ ﴾ المكذبون بك يا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ من الحق ويُعرِضُون عنه. فإنهم يصدون بالإعراض عن الحق، وهم يضجون ويصيحون برفع أصواتهم فرحاً. وذلك أنه عندما نزل قوله تعالى في سورة الأنبياء ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ قال المشركون: رضينا بأن تكون آلهتنا بمنزلة عيسى ابن مريم، اعتقاداً منهم أن عيسى عليه السلام في النار بناء على هذه الآية الكريمة، وهو ادعاء غير صحيح، لأن عيسى عليه الصلاة والسلام ما طلب من غيره أن يُعْبَد من دون الله تعالى، وأن يُتَّخَذ إلهاً كما ورد في سورة المائدة ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ فقال عليه الصلاة والسلام بما قاله الله تعالى عنه ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ ثم قال ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ وبالتالي فقياسهم باطل، فلا يصح. بأن يستدلوا على صحة معبوداتهم بناء على ما كان من النصارى. ولذلك اتهموا الرسول عليه الصلاة والسلام أنه يريد منهم أن يتخذوه إلهاً كما فعلت النصارى مع عيسى عليه السلام. ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى، نقلاً عن مجاهد وقتادة: أنه لَمَّا اتخذ النصارى عيسى ابن مريم إلهاً من دون الله تعالى، قال قومك: ما يريد محمد منا إلا أن نتخذه إلهاً كعيسى ابن مريم عليهما السلام[١] ومن دلالات الآية الكريمة ما ذكره ابن الجوزي رحمه الله تعالى: والمشركون هم الذين ضربوا عيسى مثلاً لآلهتهم، وشبهوه بها[٢] فاستخدموا القياس، بأن قاسوا شركهم على ما كان من النصارى. فهم

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٢١/٢٠-٦٢٣)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٠٣/٧)

يتحججون بباطل النصارى على باطلهم. مما يفيد أن انحراف النصارى ليس حجة، وأن على الإنسان ألا يحتج بأفعال غيره لمحاربة الهدى والحق، من أجل اتباع الهوى. كما يفيد ذلك أن المنحرف يتلمس سُبل الحجج الواهية من أجل أن يُضفي على انحرافه الصحة والصواب.

وامتد جدال المشركين للرسول صلى الله عليه وسلم بما قاله الله تعالى عنهم ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴾ فقالوا ءالهتنا خير أم المسيح ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَ ﴾ على سبيل المقارنة والمفاضلة والمماثلة، فأخبرنا يا محمد عن ذلك، فقد اتخذ النصارى عيسى ابن مريم معبوداً من دون الله تعالى. قال السدي رحمه الله تعالى: خاصموه، وقالوا إن كل مَن عُبِد من دون الله في النار، فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى والملائكة وعزير[1] أي: إن كان هو في النار لأنه عُبِدَ من دون الله، فقد رضينا أن تكون آلهتنا بمنزلته[2] فما ضربوا ذلك المثل إلا جدلاً منهم. فهم يريدون أن يجعلوا آلهتهم بمنزلة عيسى عليه الصلاة والسلام، فإن كان عيسى عليه السلام في النار، فكذلك آلهتنا في النار، وإن كان عيسى عليه السلام ليس في النار فكذلك آلهتنا.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى عمق وتجذر الجدال فيمن أنكر متابعتك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى ﴿ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴾ أي: أنهم قوم يحبون الجدال، ومتمسكون بالمخاصمة واللجاج مع أن الحق ظاهر لهم، ولكن لمحبتهم المخاصمة جعلهم ذلك يتعاظمون باختلاق الجدال. مما يبين أن من أحب وتَوَلَّع قلبُه بمحبة الجدال بالباطل فإنه يستمر معه ذلك حتى يبتعد به عن الحق والنجاة، إلا أن يروض نفسه على التواضع للحق، ويجاهدها على لزوم الأخذ بالحق إذا ظهر.

ثم يخبر الله تعالى عن شأن عيسى عليه السلام، بما يفيد أنه لم يطلب من أحد أن يعبده من دون الله عَزَّ وجل، وأنه بريء من ذلك. فقال تعالى ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ إنما عيسى ابن مريم عبد من عبادنا ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ ﴾ ليس له ميزة عن غيره إلا أننا ﴿ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ ﴾ بالنبوة، فقد اصطفيناه بالرسالة لبني إسرائيل ﴿ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ أي: آية وعبرة لبني إسرائيل، بأن الله تعالى خلقه من غير أب. فيعرفون به عظيم قدرة الله تعالى، بأنه لو شاء عَزَّ وجل لما جعل المولود يلزم فيه الأب، ولكن قدرته وسنته سبحانه وتعالى جعل المواليد وفق ما سَنَّه من الزواج.

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٦٧/١٦)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٠٣/٧)

وبالتالي يلزمهم الاعتراف بنبوته. وفي هذا رد على من اتخذه ذريعة بالمماثلة لمعبوداتهم. مما يبين أهمية التعليم، وأهمية التصدي لأهل الباطل بالعلم والبراهين.

ثم يخبر الله تعالى بكمال وعظيم مشيئته فيما لو أراد غير الذي قضى به، واختاره سبحانه وتعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَـٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾ فلو أردنا أن نجعل بدلاً منكم ملائكة في الأرض يخلف يعضهم بعضا، لفعلنا ذلك، بما يبين عظيم قدرته ومشيئته سبحانه وتعالى. فأفاد قوله عَزَّ وجل ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم ﴾ أي: بدلاً منكم. فقد أفادت ﴿ مِنكُم ﴾ البدل والعوض. ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَـٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: بدلاً منكم ملائكة في الأرض ﴿ يَخْلُفُونَ ﴾ يخلف بعضهم بعضا، فلو شئنا وأردنا لكان ذلك كما أردنا. ولكن اخترنا أن يكون ذلك هو جنس الإنسان. ليفيد كمال المشيئة والقدرة، ولإفادة المقارنة بين كمال الطاعة من الملائكة، وانقسام بعض الناس واتجاههم نحو معصية الله تعالى، بعبادة غيره من دونه عَزَّ وجل. بما يفيد التأنيب والتوبيخ لهم، من عدم مقابلة النعمة بالطاعة والامتثال والشكر كما هو حال الملائكة.

ثم ينتقل البيان من الله تعالى إلى إثبات الساعة، من خلال بيان كمال القدرة على خلق عيسى ابن مريم عليه السلام من غير أب، فقال تبارك وتعالى ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: الصحيح: أنه عائد على عيسى عليه الصلاة والسلام. فإن السياق في ذكره. ثم المراد بذلك: نزوله قبل يوم القيامة. قال مجاهد: أي: آية للساعة خروج عيسى ابن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة، وهكذا روي عن أبي هريرة، وعن ابن عباس، وغيرهم[١] وبدأ البيان بالإشارة لما سبق ﴿ وَإِنَّهُۥ ﴾ أي: وإن شأن عيسى ابن مريم ﴿ لَعِلْمٌ ﴾ لدليل يُعلمكم أن الله تعالى على كل شيء قدير، بما يثبت أنه قادر على بعثكم وإعادتكم كما كنتم قبل موتكم للحساب والجزاء. ﴿ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾ فإن ذلك لبيان واضح على حقيقة قيام الساعة، بما يفيد إثبات كمال القدرة لله سبحانه وتعالى، الأمر الذي يثبت لكم القدرة على قيام الساعة ﴿ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ فلا تشكون في وقوعها، بل كونوا موقنين بها ﴿ وَٱتَّبِعُونِ ﴾ واتبعون فيما أهديكم إليه، فإن الذي جئتكم به من عند الله تعالى هو الحق المستقيم الذي لا عوج فيه أبداً ﴿ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ فإن هذا هو منهج الإسلام المستقيم، الذي خلا من كل شائبة. وقد جمع قوله

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٤٣/٤)

تعالى ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ ﴾ جميع ما أوحى الله تعالى به من القرآن والسنة، فإن ما هو عليه الرسول صلى الله عليه وسلم هو الحق الذي لا باطل فيه، وأنه يسير بمن أخذه إلى سعادة الدنيا والآخرة. وفي هذا إعلان وبيان لجميع العباد بحقيقة ما عليه الرسول صلى الله عليه وسلم من الحق، وبما يعطي دلالة النصر، لأن النصر للحق، والهزيمة للباطل، وأن كل من يواجه دين الله تعالى فإنه مهزوم.

ثم ينهاهم ويحذرهم سبحانه وتعالى من غواية الشيطان لهم ﴿ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ فلا تجعلوا من الشيطان وسيلة تمنعكم عن الطريق المستقيم، بتزيينه الباطل لكم، ثم يعلل لهم سبحانه وتعالى سبب فتنة الشيطان لهم، حتى يجتنبوه ويحذروه، وينتبهوا له، فقال عَزَّ وجل ﴿ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ فإن عداوة الشيطان ظاهرة بينة لكم. فاحذروا مكايده، واتبعوا سبيل ربكم الذي يُوصلكم إلى لنجاة في الدنيا وفي الآخرة.

﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ
ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ٦٣ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦٤ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ
بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ٦٥ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم
بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٦٦ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ٦٧ يَٰعِبَادِ
لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٦٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٦٩
ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ٧٠ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا
تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٧١ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا
كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧٢ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٧٣ ﴾

وبعد أن أخبر سبحانه وتعالى فيما سبق: بأن عيسى ما هو إلا عبد قد أنعم الله تعالى عليه بما اصطفاه من الرسالة، التي جاء بها إلى بني إسرائيل، يستوفي البيان ما هو متعلق بالرسالة التي كان يحملها عيسى عليه السلام من ربه تبارك وتعالى. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ وعندما جاء عيسى بالآيات والحجج التي

زوده الله تعالى بها، أخبر قومه بأنه جاء لهم بالنبوة وبكتاب الله تعالى الذي هو الإنجيل، حتى يبين ويوضح لهم ما اختلفوا فيه من الحق. فقال تعالى ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أي: وعندما جاء عيسى عليه الصلاة والسلام إلى بني إسرائيل بالأدلة والحجج التي زوده الله تعالى بها، وهي التي وردت في سورة آل عمران ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

فخاطب عيسى عليه السلام قومه ﴿ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ أي: بالنبوة وبكتاب الله تعالى الذي هو الإنجيل، وما في ذلك من الدلالة على الحق، والنهي عن الباطل. ثم بين لهم السبب والعلة، بأنه بيان لبعض ما اختلفوا فيه ﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ فأبين وأوضح لكم بعض الأمور التي اختلفتم فيها، فأصبحتم بذلك الاختلاف أحزاباً مختلفة. وهو الشأن الذي اختلف فيه بنو إسرائيل في كتاب الله تعالى: التوراة التي جاءهم بها موسى عليه الصلاة والسلام من قبل. ثم يحذرهم من ذلك الاختلاف، فأمرهم وأرشدهم إلى متابعته بالطاعة والامتثال ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ فعليكم بتقوى الله تعالى وبالطاعة والامتثال. فأمرهم أولاً بالتقوى ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ لأن التقوى تؤدي إلى ما بعدها من الامتثال، وهي الطاعة، ولذلك أورد الطاعة بعد التقوى، فقال ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ وأطيعون فيما أبينه لكم من الحق، ولا تختلفوا عليَّ. مما يبين أهمية التقوى، لأنها تجمع بين الخوف من الله تعالى، وبين الرجاء فيما عند الله تعالى، فتدفع صاحبها إلى الطاعة والامتثال. كما يبين ذلك أهمية المتابعة التي تتطلبها وتقتضيها التقوى.

ثم انتقل بهم إلى بيان منطلق قاعدة المتابعة وأساسها. فقال ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ إن الله تعالى وحده هو ربي وربكم، فحصر الربانية للجميع في الله سبحانه وتعالى، فربنا واحد ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ ﴾ فإننا نشترك في توحيد الربوبية، مما يلزم أن نتوحد في عبادتنا لربنا، ونحقق توحيد الألوهية، بتوحيد العبادة ﴿ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ فتوجهوا له بالعبادة كما أتوجه له بالعبادة ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ فهذا الذي جئتكم به هو الطريق المستقيم الذي يوصلكم لمرضاة ربكم، وإلى النجاة في الدنيا والآخرة، وبما يفيد أنه لا نجاة لكم في غيره.

ومن فوائد البيان أن الله تعالى أمر رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بمثل ذلك، بأن يقول لقومه ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ ﴾ كما سبق من الآيات، وكذلك من قبله موسى عليه السلام، ليدل على أن دين الله تعالى الذي أنزله على جميع المرسلين واحد في أصوله. وجميعه يهدي إلى صراط الله تعالى المستقيم.

ثم يخبر الله تعالى بافتراق بني إسرائيل على عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، فبالرغم من وحدة أصول الدين إلا أن الأحزاب المختلفة استمرت في اختلافها على رسول الله عيسى ابن مريم عليه السلام، فقال تعالى ﴿ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ﴾ فاختلف الأحزاب من الفرق فيما بينهم. وهي الفرق المتحزبة بما تراه من رأي مخالف لغيرها من الفرق الأخرى.

وقد ورد البيان في شأنهم بما يستوعب جميع أنواع الاختلاف ﴿ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡ ﴾ سواء ما كان بين اليهود أنفسهم، أو ما بين اليهود والنصارى. قال السدي رحمه الله تعالى: اليهود والنصارى[١] وليشمل كذلك من اختلفوا في عيسى عليه السلام. فمنهم من يُقر أنه عبد الله ورسوله، وهو الحق. ومنهم من يدَّعي أنه ولد الله. ومنهم من يقول: أنه الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً[٢] فاستوعبت الآية جميع الاختلاف، بما يفيد أن تقديم العقل على الأدلة والبراهين يشتت ويمزق وحدة وقوة الأمة، وأنه يجعلها متفرقة بعدد اختلاف عقول الناس. وأن وحدة الأمة محصور في اتباع شريعة الله تعالى.

ثم بعد هذا الاختلاف يأتي التهديد والوعيد لهم من الله تعالى. فيقول عَزَّ وجل ﴿ فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ﴾ الهلاك والدمار بالعذاب الشديد لمن ظلموا أنفسهم بما هم عليه من الباطل. فبدأ الوعيد بدلالة قوله تعالى ﴿ فَوَيۡلٌ ﴾ الذي يفيد: الهلاك والدمار والحسرة ﴿ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ أي: ظلموا أنفسهم بما هم عليه من الباطل، الذي خالفوا به الحق. بل استوعب الظلم ما اشتمل عليه أمرهم من أنواع الظلم والاختلاف، والتحزب. ليشمل ظلمهم لأنفسهم بما لزموه من الباطل، وتركهم الحق، وظلمهم لرسول الله عيسى عليه الصلاة والسلام، وظلمهم للحق الذي جاءهم من الله تعالى. فويل لهؤلاء ﴿ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ﴾ من عذاب ذلك اليوم الذي تجتمع فيه الخلائق للحساب والجزاء، فإن ظلم السنين يقابله يوم واحد، هو يوم الحساب، ليعيش الكفرة بعد ذلك اليوم التأبيد الذي لا ينقطع فيه العذاب الشديد. وهذا البيان يفيد

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٣٩/٢٠)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٤٣/٤)

التحذير من الله تعالى للعباد. بل قد ورد عاماً ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ ليشمل الظالمين جميعاً، ممن كان في العهود الماضية، أو ممن لحق بهم، ومن يريد أن يلحق بهم إلى يوم القيامة. فهذا هو مصير الظالمين، فاحذروا أيها الناس من ذلك اليوم. وهذا من رحمة الله تعالى بالعباد، إذ يبين لهم الطرق التي يحصل بها العذاب، ليحذروا منها. ويتجهوا للطريق المستقيم الذي هو من عند الله سبحانه وتعالى.

ثم من رحمة الله عَزَّ وجل أنه يعظ العباد، ويذكرهم بشأن الساعة التي تأتي بغتة إلى الناس، فقال جَلَّ شأنه ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ فهل بهذا التحزب من الأحزاب، وما هم فيه من العناد والاستكبار أنهم ﴿يَنظُرُونَ ﴾ أي: ينتظرون وقوع يوم القيامة ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ أي: تحل بهم فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ وهم لا يشعرون إلا وقد وقعت بهم، وحينها لا تنفعهم التوبة، ولا وقت لهم للعمل والطاعة. إنه سؤال استنكار وبيان وموعظة عن شناعة عنادهم. فيكون هذا تحذير وإنذار وتهديد للمشركين، ولكل من تحزب ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم. فإن في هذا موعظة لمن نزل فيهم القرآن، بل موعظة مستمرة إلى حين وقوع الساعة بغتة، والناس لا يشعرون إلا وقد قامت القيامة.

قال ابن عاشور رحمه الله تعالى ما ملخصه: استئناف بياني، بتنزيل السامع له بمنزلة من يطلب البيان فيسأل عن الساعة. فورد الجواب بأنها تأتي بغتة. وقد جرى الجواب على طريقة الأسلوب الحكيم. والمعنى: أن هذا العذاب واقع لا محالة، سواء قَرُب زمن وقوعه أو بَعُد. فلا يريبكم عدم تعجيله. وقُيِّد إتيان الساعة بقيد ﴿بَغْتَةً ﴾ وهو الشيء الذي لا تسبقه أمارة، ولا يُدرَى وقت حلوله(١) وقد أكد البيان بأنهم لن يشعروا بقربها، فإنها تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون إلا وقد وقعت بهم. فلا مجال حينها لاستدراك ما فاتهم من الطاعة. وبما يفيد اغتنموا نعمة ما أنتم فيه من الفسحة والوقت. فهي موعظة عظيمة من الله تعالى لعباده أجمعين. فنحمده سبحانه وتعالى على ما أنعم به من البيان الواعظ، وعلى غير ذلك من النعم التي لا تُحصى ولا تُعد.

ثم يخبر الله تعالى بأهوال الساعة من خلال بيان سرعة تغير واختلاف العلاقة حينها بين الأخلاء، فيقول سبحانه وتعالى ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ فكل صداقة وعلاقة بين إثنين أو أكثر تتحول إلى عداء يوم القيامة، ما عدا علاقة وصداقة المتقين، لأنها خِلَّتَهم فيما بينهم مبنية على الطاعة، بينما غيرهم مبنية على المفاسد. وسماهم الله تعالى بأدق الوصف ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ ﴾ جمع خِل، وهم الأصحاب الذين ظهرت في صحبتهم التلازم والتواد في المصاحبة، حتى تخللت تلك الصحبة قلوبهم ومشاعرهم.

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٠٠/١٠)

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ يتعادون فيما بينهم، لأنهم شعروا بالأسف والندامة على تلك الصحبة، لأنها كانت مبنية على الفساد، والتعاون على الشر، فكل واحدٍ منهم قد أغوى الآخر، ومده وأعانه حتى وصلوا إلى هذه النتيجة من العذاب، بما تعاضدوا عليه من الفساد، والباطل، فيشعر كل واحد منهم أن الآخر كان عدواً له ولم يكن صديقاً ناصحاً صالحاً.

بينما حال المتقين هو الحال المخالف لهم، فقال تعالى ﴿ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ استثناء من بينهم ﴿ إِلَّا ﴾ أداة استثناء، تفيد إظهار قوة التواد المستمر من الدنيا إلى لآخرة ﴿ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ فإنهم ليسوا كأولئك، فإن توادهم مستمر، لأن كل واحد منهم كان يعين ويعضد الآخر نحو الطاعة، ويحفزه للخير، وينهاه عن الشر، فهم متحابين في الله تعالى. مما يبين ويكشف حال الأخلاء يوم القيمة، بما يلزم الإنسان أن يتعظ بما وعظ الله تعالى به، وبما كشفه للعباد من أحوال الصحبة يوم القيامة، كيف ستكون هي. ليفيد التحذير من صحبة السوء، فإنها تقود للعداوة يوم القيامة، وأن صحبة الحق تدوم حتى في عرصات يوم القيامة.

ثم يخبر الله تعالى بما يحظى به أولئك المتقين من الترحيب بهم من ربهم تبارك وتعالى، فيقول عَزَّ وجل ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ فسماهم عباده ﴿ يَٰعِبَادِ ﴾ بإضافتهم له عَزَّ وجل، تكريماً وإكراماً لهم في ذلك اليوم العظيم ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ لا خوف عليكم اليوم من الأهوال، والعذاب الذي يلحق بغيركم، فأنتم في مأمن من كل خوف، وبما يفيد ليس أمامكم إلا ما يُسعدكم وتسعدون به. كما يخبرهم بأنهم لن يحزنوا على شيء مما فاتهم في الدنيا ﴿ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ بما يفيد أن ما تجدونه من النعيم يجعلكم لا تحزنون على ما فاتكم من الدنيا لأي سبب من الأسباب، ومن ذلك ما كان بسبب ابتعادكم وتوقيكم الحرام، وصبركم على الطاعة. فانتفى كل مكروه، وثبت لهم كل محبوب وسعادة.

ثم يصف تبارك وتعالى حالهم كيف كان في الدنيا، فيقول تبارك وتعالى ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾ إن هذا المقام الكريم الذي هو ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ هو خاص بالمؤمنين ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ الذين صدَّقوا بما جاءهم من الآيات والبراهين على أيدي المرسلين، من جميع الأمم، وعملوا بما جاءهم من شريعة الله تعالى ﴿ وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾ وكانوا مستسلمين لتلك الآيات، مطبقين لشريعة الله عَزَّ وجل، وملازمين لما فيها من العبادات، وعموم أحكام ربهم تبارك وتعالى. وفي هذا بيان لجليل ورفعة حال المؤمنين يوم القيامة، الذين استسلموا لله تعالى بالانقياد وكمال الطاعة. وهي

موعظة تبين ما سيكون قبل أن يكون، لتفيد الترغيب في الطاعة، والترهيب من المعصية، واستغلال الدنيا القصيرة للآخرة الباقية، التي لا تزول ولا تحول.

فيقال لهؤلاء المؤمنين ﴿ **ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ** ﴾ ادخلوا الجنة ﴿ **ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ** ﴾ ادخلوا الجنة أنتم أيها المخاطبون، الذين كنتم في الدنيا بآياتنا مؤمنين ومصدقين، ومستسلمين لها بالطاعة والانقياد، وكذلك ﴿ **وَأَزۡوَٰجُكُمۡ** ﴾ وهو كل من ماثلهم في الإيمان من أزواجهم، وأيضاً ممن ماثلهم في الطاعة. ومن دقائق البيان أن دلالة ﴿ **وَأَزۡوَٰجُكُمۡ** ﴾ تستوفي ثلاث دلالات. قال القرطبي رحمه الله تعالى وغيره: أن المراد بالأزواج نساؤهم المؤمنات. وقيل قرناؤهم من المؤمنين المماثلين لهم. وقيل زوجاتهم من الحور العين[1] وجميع نلك الدلائل متظافرة ولا تناقض بينها، وبالتالي شملت جميع تلك المعاني. مما يبين بلاغة البيان في القرآن العظيم، باستيفاء السياق للمقاصد المتنوعة في نص واحد كريم.

فأنتم وأزواجكم اليوم ﴿ **تُحۡبَرُونَ** ﴾ أي: تُكرمون وتنعمون، وتفرحون وتسرون. ونسأل الله تعالى أن نكون والمسلمين أجمعين من أهل الفوز بالجنة والنجاة من النار.

ثم يخبر الله تعالى بحال المتقين في الجنة، فيقول عزَّ وجل ﴿ **يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ** ﴾ فإن المتقين يتنعمون في الجنة، إذ ﴿ **يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ** ﴾ فيطوف عليهم من يخدمهم من الولدان المخلدون ﴿ **بِصِحَافٖ** ﴾ وهي جمع صحفة. وهي القصعة الواسعة العريضة، التي فيها الأطعمة. وقد وردت بصيغة الجمع ﴿ **بِصِحَافٖ** ﴾ ليفيد كثرتها وتعددها وتنوعها، وتنوع ما فيها من الأطعمة، ومن أوصافها أنها ﴿ **مِّن ذَهَبٖ** ﴾ ليدل على جمالها، وكمال رونقها وشكلها. كما يُدَار عليهم بالأكواب ﴿ **وَأَكۡوَابٖ** ﴾ وهو جمع كوب، وهي الكؤوس التي لا عُرى لها، فتكون من أفخر وأحسن ما تكون الأكواب.

وكذلك فإن في الجنة ما تشتهيه الأنفس، حيث قال تعالى في وصفها ﴿ **وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ** ﴾ فإن في الجنة جميع ما تشتهيه النفس، من غير تحديد وتعيين، فليس هناك حَدٌ مُحَدَّد، ولا قدر

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٧٤/١٦)

مُقَدَّر. بما يفيد أن كل شيء مُشتَهَى في الجنة يأتي بالهيئة التي اشتهاها أهل الجنة، موافقاً تماماً لِمَا أحبوا ورغبوا. وكذلك من نعيمها أن فيها رؤية الأشكال الجميلة، كما قال تبارك وتعالى ﴿وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ﴾ أي: أن في الجنة كل ما تستطيبه العين من الأشكال والألوان والمناظر الجميلة التي تؤدي إلى استطابة النفوس. ودخول البهجة حين النظر إليه، والتأمل فيه، من الزروع، والأنهار، وغيرها مما لا يحصيه أحد من الخلق. ليفيد غاية الجمال في كل ما ينظر إليه أهل الجنة ﴿وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وأنتم في هذا النعيم خالدون، وهو الدوام الذي لا ينقطع، ولا يزول، ولا يقل، ولا يفنى، ولا ينتهي، ولا موت فيها ولا نصب ولا مرض ولا تعب، بل حياة سرمدية. فقد جمعت الآية الكريمة جميع نعيم الجنة بأدق وأوسع ما يشمله الوصف، وكأنك تنظر إليها. اللهم نسألك هذا النعيم، بأن ترزقنا والمسلمين أجمعين الجنة بفضلك وكرمك يا رب العالمين.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن سبب دخولهم الجنة خلافاً لمن دخل النار، فيقول عَزَّ وجل ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ فتلك الجنة التي وصفناها لكم، قد أورثناكم إياها بسبب ما كنتم تعملون من الطاعة في الدنيا. وبدأ البيان في ذكر السبب باسم الإشارة العائد على الجنة ﴿وَتِلۡكَ﴾ ليفيد التعظيم للجنة، وتعظيم الثواب منه سبحانه وتعالى للمؤمنين بها ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ﴾ التي وصفناها لكم فيما سبق ﴿ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا﴾ أي: التي صارت إليكم وكأن ما عملتموه في الدنيا من الطاعة لا يعادل هذا النعيم العظيم الذي لا يُقدر بثمن، ولا يوازيه عمل، مهما عمل الإنسان من الطاعة، فشبهها بالميراث الذي لم يبذل الوارث فيه جهداً. فصارت إليكم كما يصير الميراث للورثة، بما يفيد التخصيص، والعناية بالعطاء الذي خصكم به ربكم تبارك وتعالى، كما يخص المورث ميراثه لمن يرثونه دون غيرهم. ثم يذكر تبارك وتعالى السبب في حصولهم على هذا النعيم ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ فحصلتم على هذا الجزاء من النعيم بسبب ما كنتم عليه في الدنيا من الأعمال الصالحة التي تستحقون بها هذا العطاء الذي وعدناكم به. مما يدل على عظيم عطاء الله تعالى، وعظيم كرمه، وعظيم خلقه وتدبيره. بل ويُرَغِّب العباد فيما عنده من النعيم المقيم، وذلك بوصفه للجنة، وكأنهم ينظرون إليها. مما يستوجب على العباد الالتزام بدين الله تعالى، ليحصلوا هذا النعيم المقيم الذي لا ينقطع ولا يزول، وأن يجاهد الإنسان نفسه على لزوم الطاعة في هذه الدنيا القصيرة، المليئة بالنصب والكدح والتعب، والمفاتن والمغريات الزائلة.

ثم يزداد الوصف لنعيم الجنة، وذلك ببيان ثمارها وفاكهتها، فيقول سبحانه وتعالى ﴿لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ فإن في الجنة ثمار كثيرة ومتنوعة ﴿لَكُمۡ﴾ فأنتم لا غيركم المخصوصون بهذا العطاء،

فإن ﴿ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ ﴾ وهي جميع الثمار التي يتلذذ بأكلها أهل الجنة، وهذه الفاكهة ﴿كَثِيرَةٞ ﴾ كثيرة العدد، وكثيرة النوع، بما يفيد أن ثمارها لا تنتهي، مهما تم القطف منها، وأنها متنوعة تنوع لا حصر له. ثم يعزز ذلك النعيم بقوله سبحانه وتعالى ﴿مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴾ فإنها موجودة لتأكلوا منها، وفي دلالة ﴿مِّنۡهَا ﴾ ما يدل على التبعيض، فلكثرتها وتنوعها فسوف تأكلون منها، ويبقى الكثير، بما يدل على أنها لا تنتهي مهما بلغ الأكل منكم. وورد الأكل بصيغة المضارع المستمر، ليدل على تجدد أكلهم منها، واستمراره، فلا تنقطع عنكم، ولا تنقطعون عنها. اللهم نسألك هذا النعيم، بأن ترزقنا والمسلمين أجمعين الجنة بفضلك وكرمك يا رب العالمين.

﴿ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

ثم بعد أن ذكر تبارك وتعالى ثواب أهل الإيمان، وما حوته الجنة من النعيم المقيم، ينتقل البيان العظيم إلى حال المجرمين، لتظهر بالمقارنة والمقابلة عظيم المفارقة، ولتظهر الموعظة للعباد بأدق ما تكون الموعظة من الترغيب والترهيب، فيقول عزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾ إن المجرمين الذين أجرموا بكفرهم، فإنهم في عذاب جهنم آبدون لا ينفكون عن جهنم، ولا ينقطع العذاب عنهم أبداً. وقد افتتح الله تبارك وتعالى البيان بحرف ﴿ إِنَّ ﴾ الذي يفيد التأكيد، مع شد الانتباه لحال المجرمين.

ثم يزداد البيان تأكيداً لشدة وقوة عذابهم، بأنه ﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴾ فحالهم مع العذاب قد اتصف بصفتين: الصفة الأولى: أنه ﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ ﴾ أي: لا يخفف عنهم ذلك العذاب. والصفة الثانية: ﴿ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴾ أي: في ذَلٍ وخنوع، ويأس من النجاة. والإبلاس هو: الخنوع من الذي انقطعت حجته، وانقطع الرجاء، فقد تلبسهم الحزن من سوء الحال، مع اليأس من عودة الخير بعد نزول البلاء، فكلمة مبلس تفيد اليائس من عودة الخير، وانقطاع الرجاء، مع شدة الحسرة، وشديد الحزن. قال الزجاج رحمه الله تعالى:

المبلس: الساكت المنقطع في حجته، الذي أيس أن يهتدي إليها[١] فاجتمعت عليهم تلك الحالات بسبب كفرهم وتماديهم في صد رسالة الله تعالى إليهم التي جاءتهم مع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، حتى تم تسميتهم بدلالة الإجرام ﴿ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ الذي يفيد عظيم الذنب الذي كان منهم. فإن من أشد العقوبات أن يجتمع في العقوبة الشدة والدوام، بعدم الانقطاع ﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ﴾ لا ينقطع عنهم العذاب أبداً. مع حصول شدة اليأس من الخروج من هذا العذاب، فقد استكملوا العذاب الجسدي والعذاب النفسي. ونسأل الله تعالى السلامة والعافية والغنيمة.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بأن ما نالهم من العذاب هو بسبب إجرامهم، ولم تكن هناك جناية عليهم بالظلم، فقال تعالى ﴿ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ فبدأ البيان من الله تعالى بنفي ظلم الله تعالى لهم ﴿ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ ﴾ فلم يظلمهم الله تعالى بما أصابهم من العذاب، بل حقق العدل فيهم، بإرسال الرُّسُل، والبراهين والحجج، فوقع الظلم منهم على أنفسهم، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ فإن الظلم قد وقع منهم على أنفسهم، بالعناد والمكابرة، فاستحقوا العذاب الذي يتوافق مع معصية الكفر. بل قصر وحصر البيان وقوع الظلم منهم على أنفسهم بالضمير ﴿ هُمُ ﴾ فهم الظالمين لأنفسهم بالكفر والجحود، وعدم طاعة المرسلين، وخاتمتهم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، فلم يمتثلوا لأمره، فظلموا أنفسهم بالعذاب والخزي الشديد.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بحال الظالمين، وبما كان منهم مع خزنة جهنم، فقال تعالى ﴿ وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴾ فنادى المجرمون خازن النار ﴿ وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ ﴾ الذي هو خازن النار، متوسلين له أن يطلب من الله تعالى ﴿ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ أطلب من ربك أن يقضي علينا بالموت، أملاً ورغبة في الاستراحة من العذاب. فأجابهم خازن جهنم ﴿ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴾ أي: مقيمون في العذاب، لعلمه أن الله تعالى حكم عليهم بالعذاب الذي لا ينقطع عنهم.

ثم يخبر الله تعالى بكمال عدله، بأن أرسل لهم المرسلين، فتطاولوا عليهم، وأنكروا الحق الظاهر المبين. فقال تعالى ﴿ لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴾ لقد جئنا لكم بالحق الذي تحمله الرُّسُل

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٤/٢١٤)

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ ولكن أكثركم كان كارهاً للحق، بما يفيد عرفتم الحق، ولكن كرهتم الحق، وأحببتم الباطل. والمراد بالحق، هو جميع ما جاءت به الرسل من الله تعالى، وما أنزله الله جَلَّ جلاله في كتبه التي أنزلها على المرسلين عليهم الصلاة والسلام. قال ابن عباس رضي الله عنهما عن المقصود بدلالة ﴿ أَكْثَرَكُمْ ﴾ ولكن كلكم. وقيل: أراد بالكثرة الرؤساء، والقادة منهم، وأما الأتباع فما كان لهم أثر[1] مما يبين كذلك التكثير وتعظيم وتهويل ما كان من أكثرهم في محاربة الحق، بينما البقية لم يقبلوا دين الله تعالى، مطاوعة للكبراء، فكان حالهم هو حال كبرائهم. كما يفيد أن أكثركم جحدوا الحق بكفرهم، وقليل من آمن بما جاء به المرسلون.

ثم ينتقل الإخبار من الله تعالى إلى بيان مكرهم في الدنيا بما أبرموه بينهم من الباطل، مع إظهار قوة الله تعالى على تحقيق ما أراد، فقال عَزَّ وجل ﴿ أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾ فهل دبروا أمراً بإحكام شديد؟ فإن كنتم أبرمتم أمراً، فإنا قد أحكمنا ما أبرمتم بما دبرناه لكم، فجعلنا ما أبرموه هباء منثورا. فلا قيمة ولا وزن، ولا أثر له. فَيُثْبِت سبحانه تعالى ما كان منهم ﴿ أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا ﴾ سؤال تقريري، بأنهم أبرموا أمراً، فإنهم دبروا وحَاكُوا أمراً ضد الحق، مما جاءهم به الرسل عليهم الصلاة والسلام، وخاتمتهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

والإبرام هو التدبير المحكم والمتقن ﴿ فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾ فإن كنتم أبرمتم أمراً، وأحكمتموه بإتقان، في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحق هذا الدين ﴿ فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾ فإنا قد أحكمنا ما أبرموه بما دبرناه لهم، أي: فإنا مُحكِمُون ما أبرموه، بما دبرناه لهم، فإنا قاضون على أمرهم وكيدهم بما أبرمناه لهم من الإفشال، وما يتبعه من الاقتصاص. بما يفيد أن الله تعالى لا يخفى عليه مكر الماكرين مهما تَخَفُّوا به، ومهما أتقنوه، فإن الله تعالى لهم بالمرصاد. مما يبين أن من يفكر في أي حيلة لهذا الدين، فإن الله تعالى مبطله، وجاعل كيد الكائد في نحره، ومنقلب عليه.

ثم يخبر الله تعالى عن ظنهم وحسبانهم السيء، من أنهم يستطيعون أن يَتَخَفَّوا بمكرهم عن الله تعالى، فلا يراهم، فيقول عَزَّ وجل مبطلاً فهمهم عن ربهم تبارك وتعالى ﴿ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ يعتقدون ويظنون في حسبانهم الخاطئ أنا لا نسمع ما يدور بينهم مما يتحدثون فيه خفية ﴿ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ ﴾ يظنون أن ما يُسِرُّون به في أنفسهم يَخفَى علينا، وكذلك

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦/٧٨)

﴿ وَنَجْوَنٰهُم ﴾ إذ يعتقدون أن ما يتناجون ويتحدثون به بينهم على سبيل التخفي عن أن يسمعه غيرهم، أنه يخفى علينا. فيظنون أن الله تعالى لا يعلمه، وأنه يخفى عليه كما أخفوه عن غيرهم من البشر.

ثم يُبطل الله تبارك وتعالى ذلك الاعتقاد الباطل بحرف ﴿ بَلَىٰ ﴾ أي: ليس الأمر كما يعتقدون ﴿ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أي: أن الملائكة الموكلة بكتابة أعمال العباد، وهم الحفظة، فإنهم يكتبون أعمالهم، واقوالهم، فتحفظه عليهم حتى يحاسبهم ربهم عليه يوم القيامة. مما يفيد انتبهوا أيها العباد فإنه لا يغيب عن ربكم من أعمالكم وأقوالكم شيئاً، مهما تخفيتم به، فما يخفى منكم على بعضكم، فإنه لا يخفى على ربكم سبحانه وتعالى. وفي هذا إيقاظ الذهن للحق والصواب، فإن معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته العظيمة تربي الإنسان على طاعته عَزَّ وجل، وأن مَن جهل بها فقد تردى في المهالك. وبما يفيد ألا يقيس الإنسان علم الله تعالى وإحاطته وقدرته على جنس البشر، فإن ربنا ليس كمثله شيء أبداً. وهذا البيان من الله تعالى دليل على لطفه ورحمته، إذ يبين للعباد الحقائق التي هم مقبلون عليها، حتى لا يأخذ أحداً غِرة، لأن الله سبحانه وتعالى ليس بظلام للعبيد.

ثم يقرر سبحانه وتعالى كمال طاعة رسوله له صلى الله عليه وسلم، بما يثبت أن امتناعه عن عبادة غير الله تعالى هو طاعة لربه جَلَّ في علاه، وأنه لو كان هناك معبود يرضاه الله تعالى من دونه، ويأمر به لامتثل صلى الله عليه وسلم لأمر ربه عَزَّ وجل، فقال جَلَّ شأنه ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ فقل لهم أيها النبي صلى الله عليه وسلم: لو فُرِض أن للرحمن ولد ﴿ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ فأنا أول من يبادر لعبادته، طاعة لله تعالى. ولكن ليس له ولد عَزَّ في علاه. وبما يفيد أن همي وهِمَّتي هي طاعة الله تعالى على الوجه الذي يحبه ويرضاه، وأن امتنع عن كل ما لا يرضاه جَلَّ في علاه. بما يفيد أن غايتي طاعة الله تعالى فقط. فعدم عبادة غيره بسبب أن الله عَزَّ وجل لا يرضاه لعباده.

ثم ينزه الرسول صلى الله عليه وسلم ربه تبارك وتعالى عن كل ما لا يليق به، موضحاً ومستدلاً بعظمته جَلَّ في علاه ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ نزهت ربي جَلَّ جلاله تنزيهاً وتقديساً عما يقولون من النقائص والافتراء: من أن له ولد، وأنه اتخذ الملائكة بناتاً، وغير ذلك من الافتراءات. فإن من عظمة ربي سبحانه وتعالى أنه ﴿ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فإن ربكم أيها الناس الواحد القهار هو رب السماوات والأرض وجميع ما بينهما من المخلوقات، فهو ﴿ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ أي: رب العالم العلوي، الذي يشمل جميع ما يرونه العباد وما غاب عنهم، وكذلك هو رب ﴿ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي: رب جميع العالم السفلي، ليشمل الأرض وما عليها، وما في باطنها. فإن هذا الملكوت العظيم دليل على عظمة الله تعالى، وتنزهه عن كل

نقص، وعن كل عيب، وأنه لا حاجة له في مخلوق، بل إن جميع المخاليق في حاجة لربهم سبحانه وتعالى، فهو الغني المغني، وهم الفقراء إليه في كل صغيرة وكبيرة.

وكذلك فإن ربنا هو ﴿ رَبِّ ٱلْعَـرْشِ ﴾ فهو رب العرش الذي هو أعظم المخلوقات، الذي وسع الكون كله، والذي هو سقف المخلوقات جميعاً، فليس شيء أعظم منه إلا خالقه تبارك وتعالى. وفي دلالة جملة ﴿ رَبِّ ٱلْعَـرْشِ ﴾ أن الله تعالى هو رب هذا العرش الذي وسِع الكون كله، وهو سقفه، وبالتالي هو رب جميع ما هو تحته، فأغنت وأعطت جملة ﴿ رَبِّ ٱلْعَـرْشِ ﴾ أن الله تعالى رب كل شيء، ومالكه والمتصرف فيه.

ومن دقائق السياق أن بدأ بالتنزيه ﴿ سُبْحَـٰنَ ﴾ وختمه بما نزه الله تعالى عنه، وهو ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ عن جميع ما يصفون من النقائص. وورد بصيغة الفعل المضارع المستمر، ليفيد الاستمرار في التنزيه ما بقية السماوات والأرض. وليفيد التجدد والتكرار للتسبيح والتنزيه لله تعالى، وليفيد أن أهل الباطل مستمرون في باطلهم، ويتجدد ويتكرر التنزيه لله تعالى فلا ينقطع أبداً. ومن دقائق السياق أنه ورد مصدر القول على وجهين: أحدهما أن القائل للآية الكريمة ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَـرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ هو الله تعالى واصفاً نفسه جَلَّ في علاه. والثاني: أن يكون من قول الرسول صلى الله عليه وسلم عن ربه تبارك وتعالى. وهو سياق يجمع الدلالتين معاً، من غير تعارض: قاله الله تعالى، وقاله رسوله صلى الله عليه وسلم عن ربه تبارك وتعالى.

ولما استمر جحود المعاندين، فإن الله تعالى يوجه رسوله صلى الله عليه وسلم بمتاركتهم على سبيل التهديد والوعيد لهم بما سيكون من أمرهم وحالهم، فقال الله عَزَّ وجل ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ فاتركهم على عنادهم أيها الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ فلا تنشغل بباطلهم، فاتركهم ﴿ يَخُوضُواْ ﴾ أي: اتركهم ينشغلوا بالباطل، بما يدور بينهم من أحاديث الباطل. والخوض هنا هو: الحديث، وكثرته فيما هو مذموم من الكيد والاستهزاء والسخرية. وقد جمع الوصف لهم بين الخوض واللعب ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ ﴾ فَسَمَّاه سبحانه وتعالى باللعب، لأنهم وضعوا شأن الجد فيما جاءهم من الحق موضع الاستهزاء، فكان حالهم حال من يلعب بالعظيم والجد، لبيان قوة طغيانهم.

فاتركهم أيها الرسول صلى الله عليه وسلم على ما فضلوه من الخوض في الباطل، واللعب والاستهزاء ﴿ حَتَّىٰ يُلَـٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ حتى يأتي ذلك اليوم الذي وعدناهم به من العذاب والهلاك لهم. ومن

دقائق البيان الكريم أنه لم يُحدد هذا اليوم، ليزدادوا به تفكراً وتخوفاً، ولتعظيم التهديد والتخويف لهم. وليشمل ما يكون في الدنيا من القتل والأسر، وما سيكون من يوم القيامة من العذاب المهين، فاستوفى كل ما هو قادم من عذاب الله تعالى لهم، وهذا من براعة البيان في كتاب الله تعالى.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

ويزداد التأكيد والبيان عن عظمة الله تعالى التي ينتفي معها الشريك نفياً قاطعاً لمن تأمل في عظيم ملكوت الله سبحانه وتعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ إن ربكم الله الواحد الأحد ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ ﴾ فربكم هو الله الواحد المألوه والمعبود في السماء، كما هو أيضاً المعبود في الأرض ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ فهو الله تعالى وحده المعبود بحق في السماء والأرض. بما ينتفي بهذا البيان الشريك من أهل السماوات ومن أهل الأرض، فليس هناك إله إلا الله تبارك وتعالى. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وقصد بذكر السماء والأرض الإحاطة بعوالم التدبير والخلق، لأن المشركين جعلوا لله شركاء في الأرض، وهم أصنامهم المنصوبة، وجعلوا له شركاء في السماء، وهم الملائكة، إذ جعلوهم بنات الله تعالى[1] فربكم هو المعبود والمألوه في السماء والمعبود والمألوه في الأرض.

وبعد أن بين سبحانه وتعالى وحدانيته بما خلق وأنشأ ودبر من السماء والأرض، يؤكد ذلك كذلك بعظيم حكمته وعلمه، فقال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أي: الموصوف بكمال الحكمة في أفعاله وأقواله، وتدبيره لشأن خلقه، وكمال الحكم والعدل، ووضع الأمور مواضعها، وإنزالها منازلها الحقيقية. فهو الحكيم في تدبيره وقضائه، والمنزه عن كل عيب ونقص في علمه وحكمه وحكمته وتشريعه. وكذلك هو ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ سبحانه وتعالى. أي: المتصف بالعلم الكامل، الذي لا يخفى عليه شيء أبداً في السماوات وفي الأرض. بما يفيد شمول وكمال علمه تبارك وتعالى، بحيث لا تخفى على الله تعالى خافية. سواء ما كان، أو ما سيكون في السماء وفي الأرض. وهذا البيان لصفات الله تعالى صفة ثابتة ﴿ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ قاعدة عامة، وصفة ثابته لله

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢١٢/١٠)

تعالى، فهو الحكيم في تدبيره وقضائه، والمنزه عن كل عيب ونقص في علمه وحكمه وحكمته سبحانه وتعالى. كما أنه هو العليم، المتصف بالعلم الكامل، الذي يعلم كل شيء، ولا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو العليم بأدق ما يخفيه العباد، وما تكنه الصدور.

ويستمر التمجيد والتعظيم من الله تعالى بما يوضح ويُعَلِّم العباد منزلة ربهم ورفعته جَلَّ جلاله، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ افتتح الله تبارك وتعالى هذه الآية الكريمة بالتعظيم والتمجيد لذاته عَزَّ وجل، وبيان عظيم خلقه وتدبيره، وعظيم علمه. بأن له كمال الملك ﴿ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وتعاظمت وتكاثرت بركة الله تعالى وخيراته، وتعاظم ملكه وسلطانه، فله مُلك السماوات والأرض، وعنده علم الساعة التي يجهلها الخلق أجمعين، والتي يُبعث الناس فيها أجمعين من قبورهم ليوم الحساب والجزاء.

وبدأ مطلع الآية الكريمة بالتعظيم والتقديس لله تعالى مالك السماوات والأرض. فقال تعالى ﴿ وَتَبَارَكَ ﴾ والتي أفادت التعظيم والتقديس لذاته سبحانه وتعالى، بما خلق وملك من الملكوت العظيم، وما خص به نفسه العظيمة من العلم الذي أخفاه على عباده، ومنه علم الساعة، والذي يرجع فيه الناس إلى ربهم بعد بعثهم من القبور، فتبارك الذي أفاض من الإنعام والخيرات على عباده، ابتداء من الخلق والإيجاد، ثم إرسال الرسل، وإنزال الكتب على المرسلين، وخاتمها إنزال القرآن العظيم على خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين أفضل الصلاة والتسليم.

قال الفراء رحمه الله تعالى: إن تبارك وتقدس في العربية واحد، ومعناهما العظمة، وقيل المعنى: تبارك عطاؤه، أي: زاد وكثر. وقال العلماء: هذه اللفظة لا تستعمل إلا لله سبحانه وتعالى، ولا تستعمل إلا بلفظ الماضي[١] فَعَظُم سبحانه وتعالى في أوصافه وأسمائه وأفعاله، وعَلَت عظمته وقدرته وجلاله، وحلت وعَمَّت ودامت بركته، وكثر خيره وفضله وإحسانه، فهو رب العالمين الذي له الخلق والملك والأمر. فتقدس وتنزه وتعالى وتعاظم. فتبارك الله عَزَّ وجل رب العالمين.

فإن لله تعالى كامل الملك ﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ وقد جمع قوله عَزَّ وجل ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ جميع الخلق بأكمله. وتضمنت دلالة ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ﴾

(١) الشوكاني، فتح القدير (٦٠/٤)

الإيجاد والتكوين والخلق والتدبير، ومنها تدبير أمر السماوات وما فوقها وما حوت، والأرض وما حملت وما حوت، وما فوقها، وقد جمعت كلمة ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جميع ما ارتفع مما يشاهده الإنسان وما لا يشاهده، مما غاب عنه، فمما يشاهده الشمس والنجوم والقمر، والسحاب، وما لا يراه كالملائكة، وما يحسه الإنسان ولا يراه كالرياح والهواء، وغيرها مما خلق سبحانه وتعالى من المغيبات، وهو ما غاب وخفي عن البشر، لقصور حواسهم عنه، وأما دلالة كلمة ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ فشملت كل ما هو دون السماء من الأرض وما في باطنها وما يَدب عليها وما يجري فيها، وما بداخلها، وما يخرج منها، وما يُستخرج منها، فاستوعبت دلالتها الإنسان والحيوان والطير والدواب والزروع والمياه، والبحار والمحيطات، والمعادن وأنواعها، وما هو في جوفها مما يعلمه الإنسان؛ ومما لا يعلمه إلا الله تعالى. وأكدت كلمة ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ كل ما هو بين السماء والأرض من مخلوقات، مما يراه الإنسان ومما لا يراه، ومما يحسه ولا يراه كالهواء.

ومن دقائق البيان: أن كل شيء ارتفع عن الأرض فقد سما، فهو داخل في السماء، إلا أن الله تعالى خص ما بين السماء والأرض بالذكر ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ للفت الانتباه بالتخصيص. فخص تلك الأجرام بالذكر لما فيها من عجائب قدرته، فقد استقلت بنفسها عن سقف السماء، فلم تتعلق به، كما ارتفعت عن الأرض فلم تعتمد عليها، كالسحاب، والكواكب، والشمس، والقمر، والهواء الحار، والهواء البارد. فإنها متعلقة بين السماء والأرض. فذلك عظمة ربكم في الخلق، وعظمته جَلَّ جلاله في التدبير والإبداع، وعظمته في البيان وأسلوب التعليم، فسبحان الله تعالى الذي سَيَّر من مخلوقاته ما جعلها بين السماء والأرض بقدرته، وعظيم إبداعه.

ثم يخبر تبارك وتعالى بخصوصية موعد يوم القيامة، وأنه جَلَّ جلاله قد استأثر بعلم ذلك، فلم يُطلِع عليه أحد من خلقه، فقال عَزَّ وجل ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فإن لله تعالى مع عظمة خلقه ومُلكه للكون كله، خلقاً وتدبيراً، فإنه كذلك استأثر بعلم الوقت الذي تكون فيه قيام الساعة، فقد استأثر ربكم به سبحانه وتعالى. ثم يقرن عَزَّ وجل بين قيام الساعة ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ وبين عودة العباد إليه ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: أنه في هذا اليوم الذي تقوم فيه الساعة تبعثون وتعودون لربكم من أجل الحساب والجزاء. فهو تدرج وتوثيق متعاضد، فمن له ملك السماوات والأرض وبينهما، فإنه قد استأثر بموعد يوم القيامة، وأنه سيبعثكم مرة أخرى، بما يفيد ويُعَلِّم أن مَن له كمال القدرة على هذا الخلق والملك فإن له كذلك كمال القدرة على إعادتكم مرة أخرى إليه سبحانه وتعالى للحساب والجزاء، بما ينفي معه كل حسبان جاهل، لدى من أنكر البعث، واستصعبه. فهو استدلال في غاية الدقة في تدرجه، وفي كمال التنبيه والوعظ، والقياس على ما يشاهده العباد بجميع حواسهم، من عظمة خلقه وتدبيره جَلَّ جلاله. فقد تدرج البيان من عظيم الخلق والملك، إلى الاستئثار بعلم الساعة، ثم إلى الرجوع إليه للحساب والجزاء. فسبحان الله العظيم.

ثم ينفي تبارك وتعالى قدرة جميع العباد من دونه سبحانه وتعالى على أن يشفعوا لغيرهم، إلا مَن استثناهم تبارك وتعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ فكل من تطلبون منهم الشفاعة من دونه سبحانه وتعالى، فإنهم لا يملكون منها شيئاً البتة. وقد جمعهم سبحانه وتعالى في جملة ﴿مِن دُونِهِ ﴾ التي تستوفي جميع الخلائق، فإن جميع ما خلق سبحانه وتعالى هو من دونه عَزَّ وجل. ثم استثنى في الشفاعة من خصهم بما وصف، فقال تعالى ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ إلا من شهد بالحق على بصيرة ﴿ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ فهناك شرطان: الأول هو: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ والشرط الثاني هو: ﴿ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ أي: على بصيرة ويقين.

فبدأ البيان الكريم بالنفي المطلق لملكية الشفاعة ﴿ وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ ﴾ قال السعدي رحمه الله تعالى عن هذه الآية الكريمة: كل من دُعِي من دون الله تعالى من الأنبياء والملائكة وغيرهم، لا يملكون الشفاعة، ولا يشفعون إلا بإذن الله تعالى، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى، ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ أي: نطق بلسانه، مُقراً بقلبه، عالماً بما شهد به ﴿ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ ويشترط أن تكون شهادته بالحق، وهو الشهادة لله تعالى بالوحدانية، ولرسله بالنبوة والرسالة، وصحة ما جاءوا به، من أصول الدين وفروعه، وحقائقه وشرائعه، فهؤلاء الذين تنفع فيهم شفاعة الشافعين، وهؤلاء الناجون من عذاب الله تعالى، الحائزون لثوابه(١)

ويأتي البيان بمعنى: لا يملك الذين يعبدهم المشركون الشفاعة عند الله تعالى. قال ابن كثير رحمه الله تعالى عن دلالة قوله تعالى ﴿ وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ﴾: أي: من الأصنام والأوثان ﴿ٱلشَّفَٰعَةَ ﴾ أي: لا يقدرون على الشفاعة لهم ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ هذا استثناء منقطع، أي: لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم، فإنه تنفع شفاعته عنده، بإذنه له(٢)

---

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤/٤٦١)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/١٤٧)

فقد أعلم الله تعالى عباده أن ما يُعبد من دونه عَزَّ وجل لا يستطيعون الشفاعة لهم، إبطالاً لزعم من عبد غير الله تعالى، معتقداً أن غيره يشفع له، فيخبر تبارك وتعالى عن امتناع ذلك على الأصل ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ ﴾ واستثنى سبحانه وتعالى ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ فهو شرط للشافع وللمشفوع فيه. فأولاً: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ ﴾ أقر بقلبه ولسانه وأعماله بجميع أركان الإيمان، وشريعة الله تعالى، وعمل بها. سواء الشافع أو المشفوع له. وثانياً: أن يكون عالماً بمن يشفع فيه ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ وهذا خاص بالشافع، بأن المشفوع فيه هو ممن تشملهم الشفاعة. فتكون شهادته وشفاعته بالحق، فيمن يستحقها، وعلى علم بمن يشفع فيه، بأنه ممن يستحقون الشفاعة. فاستوفى الشافع والمشفوع بنص واحد من غير حاجة إلى التكرار في البيان والتفصيل. وهذا من غزارة الآية الكريمة في استفائها للمقصود بأقل الكلام.

وبعد أن أبطل سبحانه وتعالى أن يكون معه آلهة غيره عَزَّ وجل، وكمال ملكه وخلقه وقدرته، وبيان الشفاعة وشرطيها، يتدرج السياق إلى بيان بطلان ما زعم المشركون من الشرك، فقال تبارك وتعالى ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ فحين سؤالهم عن الذي خلقهم وأوجدهم بهذه الكيفية، وهذه الصورة وهذا التقدير ﴿ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ فإنهم يقرون ويعترفون بأن الله تعالى هو الخالق لهم، لا غيره ولا سواه. وفي هذا تقرير منهم بأنهم مدركون ومعترفون بأن الله تعالى هو خالقهم بلا ريب ولا شك. وقد تضمن هذا السؤال ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ ﴾ إقرارهم بأن الله تعالى خالقهم ومبدعهم، وبالتالي هم يعترفون بأن الله تعالى هو خالق جميع الخلائق. واعترافهم هذا يستوجب سؤالهم عن عدم إفرادهم ربهم وخالقهم سبحانه وتعالى بالعبادة. فلماذا تشركون معه غيره؟

فإنهم مع هذا الإقرار يتوجهون لغير ربهم بالعبادة. وبالتالي فإن عبادتهم لغير الله تعالى هو عين الكفر، باعترافهم المحض. كما يؤكد هذا أن كفرهم مع معرفتهم أنهم مخالفون لما يعترفون ويُقرُّون به، فهم متناقضون وناقضون للحق، مما يؤكد أن كفرهم ناتج عن أنهم قوم مستكبرون ومعاندون، وحاسدون للرسول صلى الله عليه وسلم من أن يمتثلوا له بما جاءهم به من الحق. وهذا يقود إلى سؤالهم ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ كيف تُصرفون؟ سؤال عن انصرافهم للباطل عن الحق الواضح المبين، بما يفيد التعجب من أنه بالرغم من وضوح جميع الحقائق الكاملة في بيانها ووضوحها، إلا أنهم مع ذلك يذهبون إلى الباطل، ولا يقرون بما جاءهم من الحق الواضح المبين، الذي أوضح لهم مكمن الخطأ عندهم، وما يقابله من الحق المستقيم.

فقوله تعالى ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ تستثير العقل والفكر للتأمل في هذا التناقض العجيب. فكيف تُصرفون وتنقلبون عن الحق، وتتوجهون للباطل؟ فإلى أي وجه عن الحق وعن قصد السبيل وطريق الرشاد تتوجهون وتنصرفون وتنقلبون؟ فهو سؤال يستعيد الحقيقة للمسؤول، وينبهه، ويشد ذهنه للتفكر والتعقل. فما الذي يصرفكم عن الحق والحقيقة، فتتوجهون إلى الباطل. فإنه أمر عجيب عن انصرافهم عن توحيد ربهم عَزَّ وجل، ويذهبون إلى الإشراك به.

فيستثير تبارك وتعالى عقول وانتباه المُخَاطَبين وعموم الناس بهذا السؤال العظيم ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ الذي هو بمعنى: إلى أي شيء تُصرفون، وكيف تنصرفون عن الحق؟ وما الذي يصرفكم؟ وإلى أي شيء تنصرفون؟ وقد حُذف الفاعل الذي أدى إلى انصرافهم، من أجل أن يستوفي جميع أسباب انصرافهم عن الحق إلى الباطل، وهذا من دقة البيان في استيعاب المراد. ومعنى ﴿ فَأَنَّىٰ ﴾ أي: كيف؟ فكيف لكم أن تنصرفوا عن الحق الظاهر لكم من الحجج والآيات الكونية العظيمة، وما أمدَّكم به من الإنعام التي يعجز عنها كل مخلوق، ولا يقدر عليها إلا الخالق سبحانه وتعالى. فتذهبون للشرك، وما يمثله من العجز والضعف، وتتركون الغني المغني. فهي محاجة تنهض بالفكر من غفلته وسباته إلى اليقظة والانتباه، لمن أراد الحق.

فكيف تتجهون بعقولكم نحو الباطل ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ فكيف تصرفون عقولكم عن الحق إلى الباطل، تاركين وصادين عن الحق، ومجاهرين بما هو مضاد له. فتصرفون عبادتكم وتوجهكم لما لا يرزق، ولا يخلق، ولا يُحيي ولا يُميت. فإنها محاجة بليغة الأثر، وقوية البيان والحجة والبرهان، فلا يصد عنها إلا مكابر معاند. ومن جميل السياق ودقته أنه جاء الإنكار عليهم بعد تقرير الحق، وتجليته، وكان بصيغة الاستفهام الإنكاري ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ فكيف تَصْرِفكم عُقُولُكم عن الحق، فتذهبون إلى معبودات لا ترزق، ولا تحكم، ولا تنشئ، ولا تحيي ولا تميت؟ وبالتالي كيف تَصرِفُون العبادة لغير الله تعالى وأنتم تعلمون أن الله هو الخالق، والمنعم عليكم بالنعم التي تعيشونها.

ثم يختم الله تعالى سورة الزخرف بشكوى رسوله صلى الله عليه وسلم ممن امتنع وأبى من قومه عن الدخول في الإسلام، فقال تبارك وتعالى عنه ﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ فبعد المحاجة، وبيان الأدلة على توحيد الله تعالى، وإقرارهم بأن الله تعالى هو خالقهم، ومع ذلك يصرون على الشرك، مما يثير في النفس التحسر والألم لمن كان حريصاً على اسلامهم، مع ظهور الحق بجميع أوجه الأدلة والبراهين ﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ ﴾ وقوله صلى الله عليه وسلم مستجدياً بربه سبحانه وتعالى ﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا

﴿ يُؤۡمِنُونَ ﴾ فإن هؤلاء القوم الذين أدعوهم للحق، هم قوم ممتنعون عن الإيمان، مع ما ظهر لهم من الآيات والحجج، وإقرارهم بأن الله تعالى خالقهم. بما يفيد شدة الحزن والحسرة عليهم.

وهنا يخاطب الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم في شأنهم، وجواباً لمطلبه صلى الله عليه وسلم، واستجدائه بربه عَزَّ وجل، فيقول جَلَّ جلاله ﴿ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ فاعف عما حصل منهم لك ﴿ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ ﴾ تنازل عما كان منهم في حقك، وحق ما جئتهم به، ولا تبادرهم بما يستحقون، بل عاملهم بما يتناسب مع صفحك عنهم ﴿ وَقُلۡ سَلَٰمٞ ﴾ وأعلن من طرفك السلام، فقابل عنادهم وكفرهم بالمسالمة ﴿ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ فسوف يأتيهم ما يجعلهم يعلمون عاقبة جرمهم، وعاقبة صفحك، ومعاملتهم بالسلام. وقد كان صلى الله عليه وسلم معهم كما أمره ربه سبحانه وتعالى. حتى تهالكوا في غزوة بدر، وما بعدها من الغزوات، وما تم من فتح مكة.

وهذا البيان من الله تعالى يعطي المنهجية الراقية في التعامل مع من أدرك الحق في أي مجال، ثم عاند بالإصرار على خلافه، أو حاد عن الأولى والأفضل. فإن أفضل وسيلة في التعامل معه: هو أن تكون العلاقة معه بالعفو والمسالمة والمتاركة، حتى لا يستدعيه للعناد. فإن عفوت عن زلته، وتجاهلت عناده، وبادرته بالمسالمة، حتى تأتي وتحين اللحظة التي يرى أنه لم يكن على الحق، أو أنه ترك الأحق والأكمل والأفضل. ليذعن فيما بعد للصواب. وليتعلم بذلك الأسلوب والدرس في التعامل من العقلاء، وأولي الألباب. وبهذه المنهجية الراقية في التعامل يختم الله تعالى سورة الزخرف.

تم بحمد الله وفضله إتمام سورة الزخرف، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.